صفة الإمام العادل للحسن البصرى (رضى الله عنه)
(المتوفى ١١٠ هـ)

دراسة بلاغية

الدكتور
حماد حسين حسن محمود
الأستاذ المساعد فى قسم البلاغة والنقد

مقدمة

الحمد لله الذى أسبغ علينا نعمه وأفاض علينا من فيض كرمه ، وشملنا برعايته وحفظه ، وهدانا إلى الطريق المستقيم ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد

يقول ابن رشيق القيروانى: ما تكلمت به العرب من جيد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عُشره، ولا ضاع من الموزون عُشره " [١] ، وفى هذا رد على كل من يزعم أن العرب لم يكن لهم نثر فنى قبل الإسلام ، ومعلوم أن سبب ضياع كثير من النثر الجاهلى راجع إلى طبيعته الفنية الخالية من الوزن ، عكس الشعر فإن المروى فيه أكثر ، وذلك لسهولة حفظه لاشتماله على الوزن ، كذلك قلة التدوين فى هذا العصر ، والاعتماد على الحفظ ، ومن ثم فالشعر أقرب للحفظ من النثر ، ولست هنا بصدد التعليل لأصالة النثر ، ولكن قلت ما قلت لأبين الغبن الذى تعرض له ، فإنه لم يلق العناية الكافية من الدراسات البلاغية ، والنقدية ، ولعل الدارسين فى هذا المجال تأثروا بما قاله شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجانى : من أن الشعر هو" معدن البلاغة ، وعليه المعول فيها "[٢] ، وردد الدكتور أبو موسى هذا المعنى فى قوله: دراسة الشعر،وتفقده،وتذوقه،ومعرفة فنونه ، وطرائق الشعراء كل ذلك أصل ، وأساس فى الدراسة البلاغية ، لا يقوم بشيء منها إلا عليه "[٣]، وإن كنا نسلم بهذا، إلا أنه لا يجعلنا نغض الطرف عن النثر ، خاصة وأن له لغته التى تتوهج حرارة ، وتتقد عاطفة وانفعالاً ، وتكون قادرة على إثارة الدهشة والإعجاب، فهى لغة ذات سحر خاص، توقع المتعة الفنية فى نفس القارئ والسامع ، كما أنه يعتمد كوثيقة تاريخية

---

(١) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيروانى ١ / ٢٠ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد دار الجيل الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

(٢) دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر ص ٢٤ تحقيق محمود شاكر – طبعة المدنى – القاهرة .

(٣) خصائص التراكيب د / محمد أبو موسى ص ٩ طبعة مكتبة وهبة – الطبعة الرابعة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .

للدولة أكثر من الشعر ، لأنه لسان حالها ، ولاسيما الرسائل الديوانيـــة ، والمعبـــرة عن أحداث التاريخ ، فضلاً عن ذلك أن أدبية وجمالية النص النثـــرى ، قـــد تفـــوق النص الشعرى ، لأن الشعر فى بعض الأحيان قد يكون نظماً ذهنياً ، لا روح فيـــه ، وإنما هو فكر ، ووزن وقافية ، كما هو الحال فى المنظومات العلمية للنحو وغيره، ولذا فإن الجمال فى الشعر والنثر يرجح عندما تتفـــوق الوظيفـــة الجماليـــة علـــى الوظيفة المعرفية .

ولما كان للنصوص النثرية هذه القيمة العالية فى التعبير ، وقع اختيارى على نص للحسن البصرى وهو: رسالة للخليفة عمر بن عبد العزيز بصفة الإمام العادل ، ولا شك أن الحسن رائد مدرسة الاصلاح الاجتماعى ، والسياسى فى عصره ، وواحد من رواد الخطابة الدينية ، وبالرغم من أصوله غير العربية ، إلا أنه استطاع أن يعبر بها تعبيراً لم يملكه أصحابها ، فتميز نثره بالحكمة، والبلاغة، والفصاحة ، حتى عّدو كلامه أشبه بكلام النبيين ، وكان من الزهاد الأوائل الذين نذروا أنفسهم إلى وعظ الناس ، وصدهم عن التهالك على ملاذ الدنيا، وكان الزهد فى عصره رداً على انغماس الناس فى الشهوات ، لاسيما أولئك الذين أفاءت عليهم الفتوحات الإسلامية ، أو التجارة بالمال الوفير ، وقد أوتى ملكة من التعبير جعلت مواعظه تأسر القلوب ، وتسيل الدموع ، إلى جانب كلماته التى تنبعث منها إشعاعات موحية ، ومؤثرة ، كل ذلك أغرانى بتناول رسالته السابق ذكرها بالدراسة البلاغية القائمة على التذوق البلاغى للنصوص ، ومعرفة طرائقها ، وتبين مسالكها ، وما تنطوى عليه من نكات بلاغية ، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون فى مقدمة ، وتمهيد ، ومبحث واحد ، وخاتمة ، وفهرس المصادر والمراجع، وفهرس موضوعات البحث .

المقدمة وفيها بيان بأهمية الموضوع .

التمهيد : وفيه حديث مختصر عن الحسن البصرى ، وأهم ملامح حياته ، إلى جانب ذكر النص الكامل للرسالة ، والأفكار الرئيسة فيها ، ومدى مطابقتها للحال .

ومبحث واحد خصصته للتحليل البلاغى للرسالة .

الخاتمة : وفيها أهم نتائج البحث ، ثم فهرس المراجع ، وفهرس موضوعات البحث .

وبعد .. أسأل المولى عز وجل السداد والتوفيق ، وأن يكون هذا العمل فيه إضافة للمكتبة البلاغية ، وأن يغفر الله لى ما وقعت فيه من هنات ، والله من وراء القصد ، وهو الهادى إلى سواء السبيل .

الباحث

تمهيد

أولاً : نبذة عن الحسن البصرى :

اسمه :

الحسن بن أبى الحسن يسار أبو سعيد مولى زيد بن ثابت [١] .

ويفهم من هذا أن الحسن كان من الموالى ، ولكن يبدو أنه لم يستمر على ذلك ، إذ يقول عن نفسه: " كان أبى وأمى لرجل من بنى النجار فتزوج امرأة من بنى سلمة فساق أبى وأمى فى مهرها فأعتقتنا السليمة [٢] .

ويذكر ابن قتيبة أن أباه اسمه يسار إذ يقول فى تعريفه : هو الحسن بن أبى الحسن واسم أبيه يسار ، مولى الأنصار ، واسم أمه خيرة [٣] .

ويفهم من هذا النص أن والده "يسار" لم يكن مشهوراً ، ولذا غلب عليه أن ينادى بالحسن بن أبى الحسن، بدلاً من الحسن بن يسار، واشتهر بهذه التسمية بين الناس ،وذاع صيته فى عصره .

مولده و حياته :

ولد الحسن البصرى سنة٢١ هـ [٤] ، أى قبل نهاية خلافة سيدنا عمر بن الخطاب(رضى الله عنه) بسنتين .

وكان مولده بالمدينة المنورة [٥] ، وفيها شاهد أعلام الصحابة آنذاك وجلس إليهم ، وأخذ عنهم ، وقد كان لهم الأثر الكبير فى أدب الحسن البصرى ، فقد سار على دربهم ، واقتفى أثرهم ، وأشرب كلامهم ، حتى أصبح بعض كلامه يشبه كلامهم .

وممن كان لهم الأثر البارز فى حياته أمه خيرة ، والتى كان لديها ميول

---

(١) ينظر : سير أعلام النبلاء للذهبى ج ٤ ص ٥٦٣ تحقيق مأمون الصاغرجى ، مطبعة الرسالة ، بيروت ١٩٨١ م .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٦٥ .

(٣) المعارف لابن قتيبة ص ٤٤٠ تحقيق د / ثروت عكاشة – طبعة دار المعارف بمصر .

(٤) ينظر : المرجع السابق ص٤٤١ .

(٥) ينظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ٧٢ تحقيق د / إحسان عباس – طبعة بيروت .

قصصية وعظية [١]

أثرت بشكل كبير فى جنوح الحسن البصرى فى قصصه إلى الترهيب والترغيب ، وذلك راجع لما كانت " تقصه عليه فى طفولته ، وربما كانت تجنح فى قصصها إلى التخويف من الجحيم إلى جانب ترغيبها فى الجنة [٢].

هذا وقد شهد الحسن فى المدينة المنورة مقتل الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان (رضى الله عنه)، فانطبع فى مخيلته الصورة الدامية للخليفة المقتول ، ومنذ ذلك الوقت نفرت نفسه من الفتن نفوراً لازمه طوال حياته ، وربما كان لمقتل الخليفة وما تلاه من انشقاق المسلمين بعضهم على بعض ... أثر فى تكوين مزاجه ، وطبعه بطابع التشاؤم ، والحزن الذى عرف به [٣] .

ولم يستقر الحسن طويلاً فى المدينة المنورة إذ رحلت أسرته إلى البصرة[٤]، وهناك فى هذا العصر الجديد جذبت الفتوحات الحسن فى طريقها ، فشارك فى غزو كابل وزابلستان تحت لواء الصحابى الجليل عبد الرحمن بن سمرة ، وإذا كان مقتل الخليفة عثمان رضى الله عنه ، هو الحادثة الأولى التى وجهت حياة الحسن ، فإن الاشتراك فى الغزو هو الحادثة الثانية التى فعلت فعلها فى نفسه، فهنا ألم بمعنى الموت على حقيقته، وثار فى نفسه الشعور بالمرارة من فعل الحرب ، وتحويلها عدداً كبيراً من الناس إلى عبيد ، وأشعرته هذه الحرب بأن الطريق أمامه يبتلع كثيراً من أمثاله أبناء الموالى ، ذلك أن الدولة فى عصره كانت لا تسوى بينهم وبين العرب فى الحرب ، من أجل ذلك آثر الحسن أن يضمن لنفسه احترام العرب فارتمى فى أحضان العلم [٥] .

وعلل البعض إلى اتجاه الحسن البصرى إلى العلم ، لأن الموالى أكثر إقبالاً

---

(١) ينظر : المرجع السابق ج٢ ص ٧٢ .

(٢) الحسن البصرى لإحسان عباس ص ٢٢ الطبعة الأولى دار الفكر ١٩٥٢ م . وينظر : نثر الدعوة الإسلامية عند الحسن البصرى – دراسة أدبية تحليلية – د / محمد أحمد مخلوف ص ١٩ .

(٣) ينظر : الخطابة العربية فى عصرها الذهبى د / إحسان عباس ص ٣٤١ طبعة دار المعارف ١٩٦٣م .

(٤) ينظر : فتوح البلدان للبلاذى ص ٤٣٣ تحقيق د / صلاح الدين المنجد ، طبعة مكتبة النهضة المصرية .

(٥) ينظر : الحسن البصرى د / إحسان عباس ص ٣٢ .

على العلم ، لأنهم من نسل أمم متمدينة عرفت العلم ، ودرجت عليه واكتسبت فيه حذقاً ، وسرعة قبول له ، ثم إنهم كانوا يطلبون العلم ، ليرفعهم فى نظر سادتهم ، وليستروا به وصمة الرق فمنهم ..... الحسن البصرى [١].

وكان لانتقال الحسن من المدنية إلى البصرة بالعراق أثر كبير في تكوين ثقافته فبعد أن حفظ القرآن فى المدينة وحصل على نصيب وافر من السنة النبوية ، ومن سماع أقوال بعض الصحابة والأخذ عنهم ، تعرف على صنوف متعددة من الثقافات المختلفة والمتنوعة بالعراق ، وفى هذا يقول الشيخ محمد أبو زهرة : " وفى العراق الملل والنحل والأهواء ، وقد كان موطناً لمدينات قديمة كان السريان قد انتشروا فيه ، وأنشئوا لهم مدارس قبل الإسلام مذاهب نصرانية تتجادل في كثير من العقائد ، وكان في الحيرة يونان مثقفون ، وكان العراق في الإسلام ميداناً للحروب والفتن والتناحر المذهبي بين الشيعة والخوارج ، وغيرهم " [٢] .

ومن الطبعى أن يتعرف الحسن على هذه الثقافات ، فأخذ التفسير عن ابن عباس ، والقراءة عن حطان ، وطريقة التذكير والقصص عن ابن سريع، وغيره من القصاص المنتشرين فى مساجد البصرة وبين هذه الألوان المتشابكة تندرج أمور من الفقه ، واللغة والأدب ، والحديث ، ومن كل ذلك وجد الحسن مادته الثقافية بعد القرآن والسنة النبوية " [٣] .

مكانة الحسن البصرى الأدبية :

يقول عنه أبو العلاء: ما رأيت أحداً أفصح من الحسن البصرى ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، فقيل له : فأيهما كان أفصح قال : الحسن "[٤] .

وقال عنه الغزالى : كان الحسن البصرى أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء،

---

(١) ينظر : الأدب العربى وتاريخه فى عصرى صدر الإسلام والدولة الأموية ، محمود مصطفى ج ١ ص١٩٢طبعة مصطفى البابى الحلبى ١٩٣٧م .

(٢) تاريخ الجدل للشيخ محمد أبو زهرة ص ٣٠٥- ٣٠٦ طبعة دار الفكر العربى ١٩٨٠م .وينظر : نشر الدعوة الإسلامية عند الحسن البصرى ص ٣٣ .

(٣) الحسن البصرى د / إحسان عباس ص ٢٨ .

(٤) ينظر : معجم الأعلام للزركلى ج٢/ ١٦٨ ، ووفيات الأعيان ج٢/ ١٣٦ .

وأقربهم هدياً من الصحابة ، وكان غاية فى الفصاحة تنصب الحكمة من فيه "[١].

ويعلل ابن قتيبة لفصاحة الحسن بأن أمه " خيرة " كانت مولاة لأم سلمة زوج النبى (صلى الله عليه وسلم) فربما غابت أمه فيبكى ، فتعطيه أم سلمة ثديها تعلله به إلى أن تجئ أمه ، فيدر ثديها ، فيشربه ، ولذا كانت تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك "[٢] .

وممن أشار إلى مكانته من المحدثين الرافعى إذ يقول : " ولما كان القرن الثانى ، وانتهى عصر كبار القصاص من التابعين ، ورأسهم الحسن البصرى ..وكان رضى الله عنه مفتناً ثقة "[٣].

ويقول عنه د / محمد عبد المنعم خفاجى : " وكان الحسن البصرى الإمام الورع الزاهد المعروف مشهوراً بجودة البيان ، وبلاغة اللسان ، ووفرة البيان "[٤] .

وفاته :

توفى – رضى الله عنه – بالبصرة فى مستهل رجب سنة عشر ومائة ، وكانت جنازته مشهورة ، روى ابن خلكان عن حميد الطويل قوله : توفى الحسن عشية الخميس وأصبحنا يوم الجمعة، ففزعنا من أمره، وحملناه بعد صلاة الجمعة ، ودفناه فتبع الناس كلهم جنازته ، وانشغلوا به ، فلم تقم صلاة العصر بالجامع ، ولا أعلم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ ، لأنهم تبعوا كلهم جنازته حتى لم يبق بالمسجد من يصلى العصر [٥]

ونسأل المولى عز وجل أن يرحمه رحمة واسعة ، وأن يجزيه خير الجزاء.

---

(١) ينظر : المرجع السابق ج٢ / ٢٢٦ .

(٢) ينظر : المعارف لابن قتيبة ص ٤٤ .

(٣) تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعى ج١ /٣٨١ تحقيق محمد سعيد العريان طبعة دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٤م .

(٤) دراسات فى التصوف الإسلامى ظلاله فى الأدب العربى د / محمد عبد المنعم خفاجى ج١/ ٩٣ طبعة دار الطباعة المحمدية بالأزهر .

(٥) ينظر : وفيات الأعيان ج ٢ / ٧٢ .

ثانياً : نص رسالة الحسن البصرى فى صفة الإمام العادل :

كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة إلى الحسن ابن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن رحمه الله:

اعلم يا أمير المؤمنين ، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل[١]، وقصد كل جائر[٢]، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم [٣]، ومفزع كل ملهوف [٤] .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة[٥]، ويحميها من السباع، ويكنها[٦] من أذى الحر والقر[٧] والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً؛ يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها، ووضعته كرها، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده . والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده ،

---

(١) قوام : صلاح .

(٢) القصد : العدل .

(٣) النصفة : الإنصاف .

(٤) المفزع : الملجأ عند نزول الخطب .

(٥) يذودها : يدفعها ويمنعها ، والمرتع : الموضع ترتع فيه الماشية .

(٦) يكنها : يسترها .

(٧) القر بضم القاف البرد ، وبفتحها البرد أيضًا .

واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال ، وشرد العيال فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود[١] ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ [٢] وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك،[٣] ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً. فتزود له ما يصحبك (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ) [٤] واذكر يا أمير المؤمنين (إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) [٥] ، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل. لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين؛ فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. و لا تنظرن إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد (عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً)[٦].

إني يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهي من قبلي، فلم آلك شفقة ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو

---

(١) الحدود : عقوبات مقدرة وجبت على الجانى .

(٢) أتاها : فعلها ، يليها : يملك أمرها ويقوم بها .

(٣) ثواؤك : إقامتك واستقرارك .

(٤) عبس آية ٣٤- ٣٦

(٥) العاديات آية ٩ - ١٠

(٦) طه ١١١

له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.[١]

ثالثاً : الأفكار الرئيسة فى رسالة الإمام الحسن البصرى :

هذه الرسالة توحى بمدى القرب بين الحسن البصرى ، والخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما ، كما توحى بحرص الخليفة على تحرى العدل ، والبحث عن كل شيء فيه صلاح للرعية ، فهو يؤمن بأن الولاية تكليف ، وليست للتشريف ، وليست للتربح وملئ البطون ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وهضم حقوق الرعية ، وتركهم فى ضنك ، يقاسون أعباء الحياة وحدهم ، بل هو فرد فى صفوفهم ، يألم لألمهم ، ويفرح لفرحهم ، وليت ساسة العالم يؤمنون بما أمن به الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وأن يكفوا عن نهب أقوات شعوبهم ، وتكميم أفواههم ، كما أن فى الرسالة إبرازًا لدور العالم الربانى ، وما يناط به من تكاليف أمام مجتمعه ، فالحسن هنا يسعى بكل قوة لمناصرة المصلحين من أصحاب القرار ، وهذا يدل على نضوج الشخصية الإسلامية فيه ، وحرصه على معالجة أمراض القلوب ، وشهوات النفوس، بما أوتى من بلاغة وفصاحة، مزاوجاً فى أسلوبه بين الترغيب تارة ، والترهيب أخرى ، ولقد كان بحق رائد الاصلاح الاجتماعى بين الناس فى زمانه ، وكانت له مواقفه السياسية المعروفة من الثورات ، ومن الحكام الظالمين ، وخير دليل على سعيه للإصلاح هذه الرسالة ، وغيرها من رسائله ، وخطبه ، ومواعظه ، ولعل من الأفكار والمعانى فى هذه الرسالة ما يلى :

- أهم صفة من صفات الإمام هى العدل ، ولكنه عدل ممزوج بحب ورحمة ومودة أبوية .
- صلاح الرعية وفسادها ، موقوف على صلاح الإمام وفساده ، فهو قلب الأمة، فبصلاحه ينصلح حال الأمة ، وبفساده يفسد حالها، وتأكل الذئاب فريستها دون وازع من دين وضمير.

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ١ / ٥٦ – ٥٨ . وينظر : جمهرة خطب العرب – أحمد زكى صفوت ٢ / ٤٧٦ .

- أولى الناس باتباع حدود الله ، والعمل على إقامتها هو الإمام ، فإن تعداها فلا حاجة للرعية أن يتبعوها .
- الإمام هو القائم على تنفيذ القصاص ، فلا يحق له قتل أحد بدون جريرة ، لأن فى القصاص حياة ، فكيف يقضى على الحياة من عهد عليه توفيرها للناس كى يعيشوا فى أمن وأمان ؟ .

_ تذكر الموت ، وحياة الإنسان فى القبر ، هى الباعث على يقظة الضمير ، وإعداد الزاد لمنزل تطول فيه الإقامة بلا جليس أو ونيس يأنس به فى وحشة القبر .

- اغتنام المهل قبل حلول الأجل ، وتضييع الفرص ، والسعى إلى إقامة عدل الله بين الناس بفقه وفهم ، فلا ينبغى للإمام أن يسوس الناس بالجهل ، ويسوقهم فى طريق الظالمين .
- إن أوضح صورة تظهر فيها مسئولية الإمام خصوصاً ، هى تعيين الولاة ، فما يرتكبه ولاته وعماله الذين استعملهم على الناس ، وزره يعود على الإمام ، فينبغى ألا يسلط المستكبرين على الضعفاء ، لأن المتكبرين لا يحفظون عهداً ولا قرابة ، ولا يراقبون الله فى أعمالهم ، ويضيعون حقوق الرعية .
- ينبغى على الإمام ألا يغتر بالحاشية التى تزيف الحقائق، وتجمل الباطل ، وتجعل الحق من شذوذ الزمن ، وغرائب العجائب ، وحجب الرؤية عن الإمام، وجعل حياة الناس بين يديه فى سعادة ورخاء ، بينما هم فى الواقع يعيشون حياة البؤس والندامة .
- العظة وإن كانت مريرة ، إلا أنها جاءت من طبيب يداوى حبيبه ، يكرهه على الدواء المر ، لأنه يرجو له السعادة والعافية .

رابعاً : صفة الإمام العادل بين الحال والمقتضى :

ورد فى كتاب العقد الفريد أن سبب كتابة الحسن البصرى لهذه الرسالة ، هو كتاب وصله من عمر بن عبدا لعزيز لما ولى الخلافة أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فهذه حال كشفت عن ورع الخليفة ، وحاجته الماسة إلى نصائح

المخلصين، فهو خليفة ينشد العدل ، ويتحرى الإنصاف .

وقد عرف البلاغيون الحال بأنه : الأمر الذى يدعو المتكلم إلى أن يعتبر فى كلامه خصوصية ما ، أى : هو ذلك الداعى الذى يهتف بالفطرة الإنسانية الصادقة ، إلى أن تأتى صياغة العبارة على طريق دون آخر .

أما مقتضى الحال فهو : الأمر العام الذى يقتضيه الحال، أو هو : الخصوصية التى يستدعيها الحال ، فإذا انتقل المتكلم من النظر إلى التطبيق كان الكلام مطابقاً لمقتضى الحال .[١]

فحال الطالب هنا، وهو الخليفة حال نفس محتاجة إلى من يملأ جنباتها نوراً ويقيناً ، ويأخذ بيدها إلى طريق الصواب فى رعاية مصالح الرعية ، وينقذها من هوى السلطان وسطوته ، كل هذا اقتضى أن تأتى رسالة الحسن البصرى مفعمة بهذه المعانى ، ومشتملة على أمور مهمة فى سياسة أمر الرعية ، ومن أخذ بها عصم نفسه الزلل والضلال ، كما لا شك أن مجيئها مشتملة على جملة من الأوامر والنواهى ، والمواعظ هو من مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

التحليل البلاغى لرسالة الحسن البصرى فى صفة الإمام العادل

العدل الممزوج بالحب ، والرحمة ، والمودة :

يقول الحسن البصرى : اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل[٢]، وقصد كل جائر[٣]، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم [٤]، ومفزع كل ملهوف[٥]. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع

---

(١) ينظر : مختصر العلامة سعد الدين التفتازانى ١/ ١٢٢ ، وعروس الأفراح لبهاء الدين السبكى ١٢٢/١ ، ومواهب الفتاح ١/ ١٢٢ ضمن الشروح مطبعة السرور .

(٢) قوام : صلاح .

(٣) القصد : العدل .

(٤) النصفة : الإنصاف.

(٥) المفزع : الملجأ عند نزول الخطب .

الهلكة[١]، ويحميها من السباع، ويكنها[٢] من أذى الحر والقر[٣] والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً ؛ يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها، ووضعته كرها، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده .

بداية الوصية هنا بداية قوية تقرع الآذان ، وتوحى بصدق عاطفة الحسن فى إسداء النصح ، ولذا اختار لها فعل الأمر (اعلم) وهو على سبيل النصح والإرشاد ، والحسن حدد غايته وهدفه من البداية ، ألا وهو الإصلاح والتقويم ، ولم يهتك ضوابط وقواعد الحديث مع الأمراء ، فأعقب الأمر بالنداء بـــ (يا) ، واختار أداة النداء للبعيد ، ليبرز مكانة وعلو شأن أمير المؤمنين حينئذ وهو عمر بن عبد العزيز، كما لا يخفى حسن النداء باللقب، دون الاسم المجرد ، وما فيه من التبجيل والتعظيم ، وفيه إشارة من طرف خفى إلى أن الإمارة تكليف ، وليست للتشريف ، ومن ثم ينبغى على من تقلدها أن يعى حقوقها ، وأن يقوم بواجباتها على أكمل وجه، كما أن تعاقب الأمر بالنداء يشى بأهميته ، وتصدير كلامه بالتأكيد فى قوله : (أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل) ليقطع الشك والتردد عند من يظن خلاف ذلك ، والتأكيد ضرب من ضروب الكلام يزيده حسناً وجمالاً ، ويعمق إحساس قائله به .

وفيه يقول أستاذنا الدكتور أبو موسى : " إن بحث التوكيد من البحوث الدقيقة ، وأنه لذو فوائد جمة ، وأنه لجدير بجد وجهد ، فترد عباراتك مؤكدة ، لأنك حريص على بث الفكرة وتقويتها ، وإثارة اهتمام النفوس بها ، وهكذا نجد أساليب

---

(١) يذودها : يدفعها ويمنعها ، والمرتع : الموضع ترتع فيه الماشية .

(٢) يكنها : يسترها .

(٣) القر بضم القاف البرد ، وبفتحها البرد أيضاً .

العلماء تعلو نبرتها عند إرادة اللفت والإيقاظ ، وتهيئة الذهن لما يلقون من مسائل ، ومن مطالع فصولهم تلك العبارة المضيئة : اعلم رفقك الله أن الأمر كذا وكذا ، وكأن علماؤنا – رحمهم الله – .. لا يهتمون ببيان المعرفة لأجيال الأمة ، وإنما يهتمون أيضاً بإقناعهم بها حتى لا يكونوا حملتها فقط ، وإنما يكونون حملتها وحماتها " [١] .

واختيار اسم الجلالة (الله) دون غيره من الأسماء والصفات يتناسب مع مقام الإمامة حيث الهيبة والعظمة ، وفى اختيار (العادل) بصيغة اسم الفاعل دلالة على وجوب ثبوت صفة العدل فى الإمام حتى يتسنى له قيادة الأمة ، ورعاية شئونها ، كما ينبئ بأن صفة العدل راسخة ومتحققة فيمن يتصدى للإمامة ، وتعريفها بـــ أل لإفادة العموم والشمول .

والصفات العامة التى ذكرها الحسن هنا تخاطب صنفين من الناس الأول : الخارج عن أخلاقيات المجتمع ومبادئه ، وهذا ما عناه بقوله : الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد .

وقد ترقى الحسن فى عرضه ترقياً تصاعدياً ، فبدأ بالميل ، وثنى بالجور ، وثلث بالفساد ، ولاشك أن هذا الترقى يرصد واقعاً حقيقياً للخارج عن الآداب والأخلاق، فالبداية تكون ميل وهوى ناحية المفاسد، وهذا الميل يحتاج إلى التقويم ، فإن لم ينجع التقويم ينقلب الميل إلى جور ، وهو اجتياز الحدود ، وظلم الإنسان لنفسه ومجتمعه ، ثم إذا استشرى الظلم عم البلاد والأوطان الفساد بما اقترفته أيدى الناس قال تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ .....) [٢] ، وقد اعتمد الحسن فى هذه الفقرة على الطباق بين قوام ، ومائل ، والقصد ، والجور ، والصلاح ، والفساد، وهو طباق بين الأسماء يصور التناقض فى حياة الإنسان أتم تصوير .

أما الصنف الثانى : فهم الذين يعيشون على حافة الحياة ، ومناط الإهمال

---

(١) خصائص التراكيب د / محمد أبو موسى ٩٥ طبعة مكتبة وهبة .

(٢) الروم من الآية ٤١ .

فى كل زمان ومكان ، ألا إنهم هم الضعفاء ، والمظلومون ، والملهوفون وهذا ما عناه بقوله: وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .

فلكى ينجح الإمام فى مهمته لابد أن يكون نصير كل هؤلاء ، وملاذهم ، والركن الشديد، وقد عمد الحسن إلى الطباق أيضاً بين القوة، والضعف ، والإنصاف والظلم ، ومراعاة النظير بين الفزع واللهفة ، واعتماده على الألوان البديعية هنا اقتضاه المقام وتطلبه ، لأنه يرصد أحوال الناس ، وقد أعانه الطباق على إيجاز واختصار هذه الأحوال ، كما أنه اعتمد على لون آخر من فنون البد يع ألا وهو السجع وهو من النوع الذى قصرت فقراته ، وقد استحسنه العلماء وعدوه من أحسن السجع يقول عنه اليعقوبى : أحسن السجع ما تساوت قرائنه ليكون شبيها ً بالشعر فإن أبياته متساوية [١]، ويضيف وأن " أحسن هذا الأحسن أقصره قرينة لصعوبة إدراكه ، وعزة اتفاقه ، ولقرب سجعه من السجع بخلاف التطويل [٢] ويعلل الجاحظ لحسن السجع القصير تعليلا آخر فيقول : إن " الكلام إذا قل وقع وقوعاً لا يجوز تغييره ، وإذا طال الكلام وجدت فى القوافى ما يكون مجتلباً ، ومطلوباً مستكرهاً "[٣] ، كما أن الوزن فى السجع أسهم فى تكثيف الإيقاع داخل الفقرة ، والوزن التصريفى هو المعتبر من وجهة نظر غالبية البلاغيين ، أما شراح التلخيص ابن السبكى واليعقوبى فينحازان ناحية الوزن الشعرى .

وإدخال الوزن فى حد السجع عند كثير من العلماء[٤] راجع إلى تحقيق

---

(١) مواهب الفتاح للبعقوبى٤/ ٤٤٩ ضمن شروح التلخيص طبعة دار السرور .

(٢) المرجع السابق ٤ / ٤٤٩ .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٢٧٦ تحقيق عبد السلام هارون – طبعة الخانجى – القاهرة – الطبعة الثالثة ١٩٦٨م .

(٤) إذ يقول العلوى عن السجع : هو اتفاق الفواصل فى الكلام المنثور فى الحرف ، أو الوزن ، أو فى مجموعهما . الطراز للعلوى ٣/ ١٨ طبعة دار الكتب الخديوية مصر ١٩١٤ ويقول عنه أبو هلال العسكرى : ينبغى أن تكون الفواصل على زنة واحدة ، وإن لم يمكن أن تكون على حرف واحد قيقع التعادل والتوازن . ينظر : كتاب الصناعتين ص ٢٨٩ تحقيق د مفيد قميحة دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٩٨١ م .

الاعتدال ، واتفاق الأسلوب ، مما يجعله فى قمة البلاغة .

كما نلاحظ أن كلمة (كل) تكررت فى الفقرة ست مرات ، وهى من الكلمات التى تدل على العموم ، والتكرار هنا مقصود ليفيد أن مهمة الإمام هى رعاية جميع أفراد الرعية لا يتخلف منها واحد ، ولا تقتصر رعايته على فرد دون آخر ، وهذا ما أوحت به كلمة (كل) ودلالتها على العموم والشمول .

والتكرار موائم للفطرة أولاً ، وله وظيفة مزدوجة الأداء ثانياُ ، إذ يحمل مع التوثيق للمعنى ، ودفع المساهلة فى القصد ، قيمة صوتية وفنية ، تزيد القلب له قبولاً ، والوجدان به تعلقاً[(١)]، وهذا ما قصده الحسن من تكرار كلمة (كل) .

وبعد أن سرد الحسن – رضى الله عنه– هذه الصفات العامة المطلوبة فى الإمام أراد أن يرسخ لها ، ويعمقها فى النفوس مستخدماً فى ذلك أسلوب التشبيه ، إذ هو من أقدر الفنون على تصوير عواطف الإنسان ، وإخراج ما يكمن فيها من آهات وتوجعات ، فذكر أحوال الإمام مع رعيته فقال : والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع، ويكنها من أذى الحر والقر .

إذا كان الحسن قد اعتمد فى الفقرة السابقة على الطباق ، والسجع فى التعبير عن معانيه ، فإننا نجده هنا يعتمد على التشبيه ، وقد أحسن صنعاً ، لأن التشبيه من أقدر الفنون البلاغية على تصوير الواقع ، ورصد حركاته ، وما يجرى على سطحه ، كما أن الصورة التشبيهية تعطى للكلام دقة فى أداء المعنى ، وتزيد من حسنه ، ورونقه ، ومائه .

فشبه الإمام العادل ، بالراعى فى الاهتمام وحسن الرعاية ، وبدأ تشبيهاته بالراعى، لأن أول ما يلامس حس العربى والبدوى ذكر المرعى، وما يدور فيه ، ولأن أغلب حياتهم ومعيشتهم تقوم عليه ، كما أنهم خبروا معنى اهتمام الراعى، ولذا ضربوا المثل لمن يتولى أمراً ولا يرفق به ، ولا يقوم بواجباته فقالوا : " ما

---

(١) ينظر : التكرير بين المثير والتأثير د عز الدين اسماعيل ص ٨٦ طبعة عالم الكتب – بيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م .

هكذا يا سعد تورد الإبل " [١] ، واختار الإبل لمكانتها عند العربى ، فهى مصدر الخير والبركة ، وهى رفيقة البدوى فى الصحراء الواسعة ، ومن عظمتها أقسم الله بها قال تعالى : (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)[٢] ، ولم يكتف الحسن ببيان المشبه ، والمشبه به ، وإنما فصل التشبيه بأن عدد جزئيات المشبه به ، وهذه الظاهرة تعرف بظاهرة الاستطراد فى التشبيه ، كما أن هذا التفصيل والتحليل لعناصر المشبه به يجعل التشبيه من التشبيهات الجيدة ، وذلك " لأن من الأسس التى يذكرها البلاغيون فى جودة التشبيه ، ما يكون فيه من عنصر التحليل والتفصيل فالتشبيهات التى تبنى على هذا الأساس من النظر المستقصى ، وتحليل الشيء الذى يكون الكاتب وغيره بصدد بيانه سواء فى ذلك ما كان أوصافاً لأشياء حسية ، أو كان تحليلاً لأفكار وأحوال ومشاعر ... تشبيهات جيدة ، وهى تفضل فى سياق المقارنة التشبيهات التى لا تتعمق الأشياء ولا تتقصى أحوالها وأوصافها، وإنما تلم به الماماً إجمالياً ، وذلك لأن هذه التشبيهات التى تعتمد النظرة الإجمالية لا عناء فيها ، ولا مراجعة ، لأن الشيء يقع فى النفس لأول وهلة كما هو بجملته من غير انتباه إلى دقائق تفاصيله ، وإنما تدرك التفاصيل ودقائقها بمراجعة النظر وإدارة الفكر فى الشيء [٣] وأول جزئية من جزئيات المشبه به ذكرها الحسن _ رضى الله عنه _ (الشفقة) ، والشفقة تشى بعمق إحساس الراعى برعيته ، ومن ثم الإمام الذى يرعى أمته فوق ما تحمله هذه الكلمة من الحنو والرحمة ، كما أن التعبير بـــ (على) بدلاً من الباء يوحى بالإشراف والعلو ، وهذا يتناسب مع مقام

---

(١) جاء في مجمع الأمثال للميداني ، أوردها سعد وسعد مشتمل ** ما هكذا يا سعد تورد الإبلوسعد هذا، هو سعد بن زيد مناة أخو مالك بن زيد مناة . ومالك هذا هو سبط تميم بن مرة. ، ثم إنه تزوج وبنى بامرأته ، فأورد الإبلَ أخوه سعد ، ولم يحسن القيام عليها والرفق بها فقال مالك : أوردها سعد وسعد مشتمل ** ما هكذا يا سعد تورد الإبل . فقال سعد مجيباً له : يظل يوم وردها مزعفراً ** وهي حناظيل تجوس الخضرا يضرب لمن قصّر في الأمر . وجاء في حياة الحيوان الكبرى للدّميري ، يضرب لمن تكلف أمراً لا يحسنه .

(٢) الغاشية آية ١٧ .

(٣) ينظر : التصوير البيانى د محمد أبو موسى ص ١٣٨ طبعة مكتبة وهبة .

الإمام العادل ، فالجميع تحت نظره يتدبر شئونهم ، ويتفقد مصالحهم ، ولم يقتصر الأمر على الشفقة ، بل ترقى إلى أمر آخر هو الرفق بالرعية ، والرفق درجة عالية من الحنان ، ودفقة سامقة من الحب ، وهذا يوحى باتباع اللين ، والبعد عن الزجر ، ثم يترقى فى التشبيه فيذكر جزئية تميز سياسة المعاملة فى من يتولى رعاية شأن من الشئون فيرفق بأهله ، فالراعى هنا ليس سلبياً يترك إبله تجتهد فى طلب رزقها ، بل هو الذى يختار لها أطيب المرعى ، حتى تملأ بطونها ، وفى هذا دلالة على أن الأمام أيضاً مسئول عن رعيته يوفر لها الحياة الكريمة، ويطعم الأفواه بالطعام الطيب ، ولا يترك الناس جوعى ، يأكل بعضهم لحم بعض ، والتعبير باسم الموصول (الذى) أفاد تقرير هذا الأمر وتأكيده ، كما أن الفعل المضارع (يرتاد) يوحى بالتجدد والاستمرار، وفى هذا دلالة على أن الإمام العادل لا ينبغى له أن يتوقف عن طلب ما فيه صلاح رعيته ، ولا يفتر عن رعاية شئونها ، ولما كان الراعى حامى لماشيته ويمنعها من مواطن الهلكة ، فكأنى بالحسن يسقط هذا الأمر على الإمام أيضاً فهو يذود عن رعيته ، ويمنعها من مواضع الهلكة ، ولما كانت طرق الهلا ك متنوعة ومتعددة ، وليست سبيلاً واحداً بل سبل كثيرة جاءت الكلمة بصيغة الجمع (مراتع) ليحكى تشعب طرق الهلاك ووعرة مسلكها ، ودائماً الشطط والزيع عن جادة الصواب تجد طرقه متنوعة ، والعكس من ذلك السير على النهج السليم ، والطريق المستقيم مسلكه واحد ، ودربه واحد ، كنهج العدل ، والحق ، والنور، ولو تدبرنا القرآن لوجدناه يرصد هذا الواقع ، فالنور ، والحق ، والهداية ، دوماً شيئا واحداً ، ولذا تجد ألفاظ النور، والهداية، وسبيل الحق تأتى فيه مفردة بينما الظلمات وطرق الغواية والإضلال متعددة ومتشعبة ولذا أتت فى القرآن جمعاً قال تعالى (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[١] ، وقال أيضاً (الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ) [٢] ، وقوله: (مراتع الهلكة)

---

(١) سورة إبراهيم آية ١ .

(٢) سورة الأنعام آية ١ وتجدر الإشارة إلى أن لفظ النور والظلمات وردا فى القرآن الكريم فى اثنى عشرا

أسلوب استعارى يشخص ويجسم هول هذه المخاطر، ويضيف الحسن جزئية أخرى من جزئيات المشبه به الراعى ، فهو لا يكفيه منع إبله من ارتياد مواضع الهلكة ، بل عليه أن يحميها من السباع الضارية ، وهذا ترقى فى عناصر المشبه به ، وهو ترقى تصاعدى ، فبعد الإطعام ، والبعد عن الهلكة ، أمر طبعى أن تخلد الأجسام للراحة عادة ، ولا شك أن الراحة تتبعها مسئولية أخرى ،وهى حماية الآمن الوادع فى مخدعه ، وهى من تبعات الراعى ، وفى هذا إيحاء بأن الحاكم كما يرى الحسن ينبغى أن يكون مسئولاً مسئولية تامة عن توفير وسائل الأمن والحماية ، كما يفعل الراعى فإنه يخشى على أنعامه الحيوان المفترس ، حتى لا تفتك بها ، وكذلك ينبغى للإمام أن يحمى رعيته من أشباه السباع من ظلمة البشر ، ومن مصاصين الدماء ، ومن المحتكرين والمستغلين مقدرات الشعوب ، ولفظ (السباع) يتسع ليشمل من يعيش وسط الرعية ، ومن يتربص بها من خارجها وهم الأعداء الذين يتربصون بأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وتنتهى جزئيات المشبه به عند ستر وصون الرعية من أذى الحر والبرد ، فلا يتركها بدون ظل فى أيام الحر، ولا بدون غطاء فى أيام البرد، وفى هذا قمة الحنان والرعاية ، وتلتقى هذه الجزئية الأخيرة مع الجزئية الأولى (الشفقة والرفق) وبهذا يترابط أجزاء التشبيه فى بوتقة واحدة ، وتتنامى الجزئيات داخل الصورة التشبيهية تنامياً تصاعدياً ، حتى يصل فى النهاية إلى ما أراد من التشبية، وهو رعاية حال الرعية والقيام بشئونها، وقد تعاونت الكلمات داخل الصورة لتحقق هذا الغرض ، فلفظ (يكنها) فيه دلالة على شدة الرعاية والصون والستر ، فوق ما يحمله من معانى الرعاية الشاملة فهو لم يترك حالاً تكون عليه رعيته إلا وشمله برعايته ، كما أن الطباق بين الحر والقر يحكى تناقض الأحوال ، وتعارضها ، وهو يجسم عظم المسئولية ، فالرعاية ليست قاصرة على إعانتهم فى أيام البرد فقط ، ولا فى الحر فقط ، بل هى تشمل الأمرين المتناقضين المتضادين ، وهذا ما كشف

موضعا فى البقرة آية ٢٥٧، والمائدة آية ١٦، والأنعام ١، وإبراهيم آية ١ ، ٥، ، والأعراف ١٥٧، والرعد ١٦ ، والأحزاب ٤٣، وفاطر ٢٠، والحديد ٩، والتغابن ٨ ، والطلاق ١١ .

عنه الطباق ، كما أن تكرار الفعل المضارع فى هذه الصورة التشبيهية (يرتاد) ، (يذودها) ، (يحميها) ، (يكنها) يوحى بأن عين الراعى على رعيته يجب أن تكون متيقظة دائماً وعلى الاستمرار لا تهدأ ولا تخبو ،كما أن الفعل المضارع يستحضر الموقف ، ويبرز هذه المشاهد وكأنها حاضرة بين يدى المخاطب ، كما أن انتهاء بعض الألفاظ بمقاطع صوتية مفتوحة ، وممتدة من مثل : (بها ، لها ، يذدوها ، يحميها ، يكنها) أعطى دلالة على رغبة الحسن فى إفراغ نصيحته للإمام من كل أعماقه كما أحس بها ،وانفعلت بها نفسه وهذا جلى من امتداد الصوت بهذه المقاطع ،كما أن هذا الامتداد يوحى أيضاً بإفراغ شحنة من الحنان والعاطفة الجياشة التى تنبئ عن حب الحسن لخامس الخلفاء الراشدين ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يحمل هذا الامتداد والمقطع الهادئ صورة معبرة لما يكون عليه الحنان والرفق والعطف بين الراعى والرعية ، وفى هذا قمة الإحساس ، وقد برع الحسن فى تصوير صورة المشبه به (الراعى) بتفصيلاته المتعددة ، وجزئياته المترابطة ، والتى تسلم كل جزئية فيه إلى الجزئية التى تليها فى تناغم وتوافق ، وانسجام لفظى وصوتى ، ولذا أشبهت هذه الجزئيات حبات العقد المنتظم فى سلك واحد ، فإذا انفرط منه حبة تساقط وتناثر، وكذلك هذه الصورة التشبيهية.

كما أن الحسن زواج فيها بين أسلوب الحقيقة والمجاز ، والتصوير بالحقيقة لا يقل شأناً عن المجاز إذ له وقع فى النفس لا يخفى ، يضاف إلى ذلك التناغم الصوتى بين الحروف داخل الصورة التشبيهية ، فنلاحظ أن حرف الهاء تكرر فيها سبع مرات (إبله ، بها ، لها ، يذودها ، الهلكة ، يحميها ، يكنها) بجانب حرف العين تكرر ست مرات فى (الراعى ،على ، المرعى ، عن ، مراتع ، السباع) ومعلوم أن الهاء والعين من حروف الحلق ، والتى يصعب نطقها ، وكأن الصعوبة فيها تحكى قسوة وصعوبة الولاية ، وذلك لعظم مسئولياتها .

كما أن تكرار الحرف فى الكلام على مسافات متقاربة يكسبه إيقاعاً مبهجاً ، يدركه الوجدان السليم عن طريق العين ، فضلاً على إدراكه السمعى بالأذن ، وهذا التكرار يحسن حسناً كبيراً ، إذا جاء بطريق التداعى غير متكلف له ، بحيث يتسق

المعنى اتساقاً يشغل النفس عن أن جانباً كبيراً من حسن العبارة راجع إلى التكرار [١] ، يضاف إلى ذلك التجسيم والتشخيص التى قامت به الاستعارة فى قوله : (ويذودها عن مراتع الهلكة) ، فاستعار المراتع لجوانب وطرق الهلاك المتعددة ، وكأنه يشبه الطرق والوسائل فى الهلاك بالمواضع التى ترعى فيها الماشية ، والاستعارة هنا صورت الجهد المبذول من قبل الراعى فى توفير الأمن لرعيته ، فهو يبعدها عن أى مصدر خطر أو فيه هلاك .

ومعلوم أن الاستعارة لها دورها فى تشكيل المعنى ، وتشخيص الموقف ، وفى إبراز الصورة التى أرادها الملقى ، ولا يخفى وقعها وتأثيرها فى نفس المتلقى.

ومهما قيل عنها ، فإنها ستظل " أمدٌ بياناً ، وأشدُ افتناناً ، وأكثر جرياناً ، وأعجب حسناً وإحساناً ، وأوسع سعة ، وأبعد غوراً ، وأذهب نجداً فى الصناعة وغوراً ، من أن تجمع شعبها وشعوبها ، وتحصر فنونها وضروبها "[٢] .

ويتدرج الحسن البصرى فى التشبيه فيأتى هذا المقطع مشتملاً على تشبيه يتجاوز العموم فى المقطع السابق إلى الخصوص فيقول : والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً ؛ يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته .

وبدأ هذا المقطع بعبارة (والإمام العادل يا أمير المؤمنين) وهى عبارة متكررة كثيراً فى رسالته تحمل الألفاظ والمعانى نفسها ، وقد ساقها الحسن ليؤكد ويقرر كلامه فى الأذهان ، وليعلم المتلقى بكلام جديد ، ومعان أخرى يقصدها ويقررها فى كلامه ، ومعلوم أن التكرار من صور الإطناب عند البلاغيين ، ونكتته إفادة التأكيد ، والعناية بالأمر .

يقول ابن قتيبة : ومن مذاهبهم التكرار ، لإرادة التوكيد والإفهام[٣]، ويقول ابن فارس : ومن سنن العرب التكرير ، والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية

---

(١) ينظر : التكرير بين المثير والتأثير ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجانى ص ٤٢ تحقيق محمود شاكر طبعة المدنى القاهرة ١٤١٢هـ .

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٢٣٣ تحقيق السيد أحمد صقر – طبعة دار التراث ١٩٧٣ م .

بالأمر.[١] .

ويذكر الخطابى البواعث النفسية للتكرار فيقول : وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله فى الأمور المهمة ، التى قد تعظم العناية بها ، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها ، والاستهانة بقدرها فالاهتمام وخوف الغلط أو النسيان علل نفسية تدعو إلى التأكيد بإعادة لفظ ما يهتم به ويخاف عليه [٢] .

وأحسب أن الإمام الحسن أراد ذلك ، وأراد ما هو أعمق منه ، فالتكرار عنده صورة لحسه ووجدانه ، وانفعاله بقضايا أمته ، والسعى إلى تحقيق العدل ، وإرساء قواعده على يد حاكم عادل يجد صورته فى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، ومن ثم " فإن التكرير فى أعلى صورة انبعاث وجدانى يفيض على السامع حرارة تتحرك لها قلبه ، وإلا كان صورة باردة تفقد نبض الحياة "[٣] ، يضاف إلى ذلك ما يضفيه التكرار على الكلام من قيمة صوتية وفنية ، تجعل النفس طربة بهذا الإيقاع ، وبهذا النغم العالى فتقبل الإذن عليه ، ويهفو القلب إليه ، ويتعلق الوجدان به ، وتجد اللسان لا يمل من ترداد ما سمع ، فيعيد فيه ويزيد تلذذاً وإعجاباً.

وبعد هذا التكرار الذى نبه الأذهان وهيأ القلوب ، يسوق الحسن التشبيه الثانى فيشبه الإمام العادل بالأب الحانى على ولده ، وصورة المشبه عنده واحدة ومكررة وهى الإمام العادل ، بينما تتغير وتتنوع صورة المشبه به ، فبعد التشبيه بالراعى فى المقطع السابق تظهر هنا صورة الأب ، وهى صورة فيها خصوصية ، وفيها ترقى فى الرعاية والاهتمام، فالأب بلا شك أكثر حنواً، وأشد قرباً من رعيته من الراعى ، والحسن هنا لا يكتفى بالصورة العامة للأب فى كمال رعايته واهتمامه ، بل يذكر جزئيات وتفصيلات تجعل صورة المشبه به أكثر عمقاً ، وأوقع فى النفس ، وكأنه يريد من ذكر كل جزئية أن تكون حاضرة فى ذهن وقلب المشبه وهو الإمام العادل ، فالأب هنا حانى على ولده ، والحنان بجانب ما فيه من دفء المشاعر فيه

---

(١) ينظر : الصاحبى لابن فارس ص ١٧٧ .

(٢) ينظر : ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الكريم ص ٤٧ ، ٤٩ طبعة دار المعارف .

(٣) التكرير بين المثير والتأثير ص ٦٠ .

من الأب الحماية والرعاية ، والتعبير باسم الفاعل (حانى) فيه دلالة على ثبوت واستقرار الحنان فى قلبه ، ومعروف أن حب الأب أو الولدين فطرى وغريزى لا يحتاج إلى تأكيد وإيقاظ ، عكس حب الأبناء للوالدين ، فقد يتفاوت ويتناقض فيه الاهتمام ، ولذا نجد القرآن الكريم لم يوص الآباء بالأبناء ، بل العكس قال تعالى : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ..)[1] فأوصى الأبناء برعاية الآباء ، لأن الولد قد ينشغل عنهما بولده وزوجته ، وقد يهجرهما ، وقد يتفاوت الحب عنده تجاههما .

وفى تقديم التشبيه بالأب على التشبيه بالأم ، دلالة على أن أمر الإنفاق موكول به الأب ، و كذلك أمر الحماية ، والتعبير بـــ (على) فى قوله : (كالأب الحانى على ولده) يحكى ويصور الحركة المادية الحسية لهذا الحنان ، فالعلو هنا يتلاشى ويذوب فى هذه العلاقة الفطرية ، فوق ما تحمله كلمة (الحانى) من مشاعر العطف والحنان ، فكأن الأب يحنو على ولده ، ويميل إليه ميلاً كما تحنو الأشجار بعضها إلى بعض عندما تداعبها نسمات الهواء ، يضاف إلى ذلك ما فى التعبير باسم الفاعل من دلالة على استمرار هذا الحنو والعطف ، وفى التعبير بالولد دون الابن ليشمل الذكر والأنثى ، كما أن الإضافة فى (ولده) تفيد شدة القرب ، وكمال العناية والرعاية ، وفى إفراد الولد دون الجمع فيه دلالة على أن كل واحد من أفراد الأسرة معنى بهذا الحب والحنان على قدر من التساوى ، وهذا هو العدل ، وكأن الحسن يرمى بهذه الجزئية ، ويقصدها ليحاكيها الإمام مع رعيته ، من توزيع الاهتمام والحنان على كل أفراد رعيته بالتساوى.

وبعد تصوير هذا الحنان مادياً ومعنوياً ، يحكى لنا الحسن جزئية أخرى فى المشبه به وهى بيان جهد الأب فى الرعاية والاهتمام ، وهى تفصيل لما أجمل من الحنان السابق ، والتفصيل بعد الإجمال من شأنه تقوية المعنى وتأكيده ، وربط السابق باللاحق ، فيقول : (يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً) ، وقد اعتمد هنا على الطباق بين (صغاراً) ، و (كباراً) ، وهو طباق يحكى الفترة الزمنية لرحلة

---

(١) الإسراء من الآية ٢٣ .

الأبناء مع أبيهم ، ومن ثم فإن عنايته لا تفتر عنهم أبداً سواء فى صغر أو كبر ، مع اختلاف المهمة فى كل مرحلة ، ففى الصغر لا يحرموا من لذة الحياة ونعيمها ، وفى الكبر لم يحرموا من التوجيه والتعليم ، ولما كان السعى من جانب الأب مستمراً ومتجدداً جاء التعبير بالفعل المضارع (يسعى) ، وكذلك لما كان التوجيه والتعليم مستمراً أيضاً جاء التعبير بالفعل المضارع (يعلمهم) ، ثم يذكر جزئية أخرى من جزئيات المشبه به فيقول : (يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته) ، وقد فصلت هذه الجملة عما قبلها لوقوعها موقع الجواب عن سؤال ، فكأن سائلاً يسأل وكيف يتم هذا ؟ فأتى الجواب : يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ، ويعرف هذا الفصل عند البلاغيين بشبه كمال الاتصال ، أو الاستئناف البيانى ، وهو من أروع الأساليب وأقواها ، كما أنه دليل على يقظة المتكلم وإحساسه المرهف ، وارتباطه الوثيق بحس مخاطبه ، إذ يشعرك – دائما – أن نفس المخاطب صفحة مفتوحة ومبسوطة أمامه يرى ويطالع فيها ما تحدثه تعبيراته من آثار ، ولذا فإن الاستئناف طريق البلغاء ، ومسلك الصفوة من الشعراء والأدباء ، وهو فوق كل ذلك خيط يصل بين فكر ومشاعر ، وينظم الخواطر فى سلك واحد يحقق للمعانى – لدى الأدباء – جمال الاتساق ، وحسن الترابط [١] .

والأب فى العبارة السابقة لم يكتف بالاكتساب لهم فى حياته ، بل ويدخر لهم بعد مماته ، وبهذا يكون قد حقق لهم الستر فى حياته ، وبعد مماته ، واعتمد هنا على المطابقة بين (حياته) ، و (مماته) ، والطباق هنا أعان على إبراز كمال عناية الأب بأولاده ، وعميق الاهتمام بهم ، ففى حياته وفر لهم سبل السعادة والراحة ، وبعد مماته ترك لهم ما يعينهم فى حياتهم ، ولا نغفل دور التعبير بالفعل المضارع (يكتسب) و (يدخر) ، والذى أفاد تجدد واستمرار هذا العطاء ، كما أنه يحكى صورة الكفاح والمعاناة لتكون حاضرة فى الأذهان .

ونلاحظ أن التشبيه هنا بجزئياته وتفصيلاته دار فى عدة محاور أسلوبية

---

(١) علم المعانى – د / عبد الحافظ البقرى ص ١٨١/ ١٨٢ .

كالاعتماد على الفعل المضارع، وتكريره أربع مرات (يسعى) ، و (يعلمهم) ، و (يكتسب) ، و (يدخر) ، وتكرار الجار والمجرور (لهم) ثلاث مرات ، والذى ألمح باختصاص السعى ، والكسب والادخار لهم لا لغيرهم ، والطباق ، وقد وضحناه ، وبجانب كل هذه الصور البلاغية جاءت هذه الفقرة متناغمة لفظاً ، وصوتاً ، ووزناً من خلال السجع بين الفقرات ، والسجع هنا متفق فى حرف الروى ، وكذلك الوزن فى الفقرات الأربع ، وإذا كان الاتفاق فى الحرف يعطى نغماً صوتياً ، فإن الاتفاق فى الوزن يسهم فى تكثيف الإيقاع داخل النص ، وامتاز سجع الحسن هنا بأنه سجع قصير ، وقد أشاد البلاغيون بالسجع القصير وقيمته البلاغية ، وفى ذلك يقول اليعقوبى : أحسن السجع ما تساوت قرائنه ليكون شبيهاً بالشعر ، فإن أبياته متساوية ، ويضيف قائلاً : أن أحسن هذا الأحسن أقصره قرينة لصعوبة إدراكه ، وعزة اتفاقه ، ولقرب سجعه من السجع بخلاف التطويل [١] ، ويعلل الجاحظ لحسن السجع القصير تعليلاً آخر : فيقول : إن " الكلام إذا قل وقع وقوعاً لا يجوز تغييره ، وإذا طال وجدت فى القوافى ما يكون مجتلباً ومطلوباً مستكرهاً "[٢] .

يضاف إلى ذلك أن السجع هنا تطلبه المقام ، وجاء تابعاً للمعنى الذى أراده الحسن من هذه الفقرة ، ومن ثم فهو غير متكلف ولا مستكره ، بل أضاف إلى المعنى تناغماً وتجاوباً بين الألفاظ تناغماً موسيقياً يحمل دلا لات مشعة .

وتتابع جزئيات التشبيه عند الحسن فينتقل من تشبيه الإمام العادل بالأب إلى تشبيهه بالأم ،فيقول : والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها، ووضعته كرها، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته .

وهذا التتابع تتابع منطقى ، فإذا كان الأب تكفل بالحماية، والرعاية ، والنفقة ، فإن دور الأم لا يقل شأناً عن ذلك ، فهى التى تهيأ كل السبل لتحقيق كل ما قد سبق ، وهى الواحة التى ينبت فوق راحتيها الوليد ، ويشدو فى الحياة ،

---

(١) ينظر : مواهب الفتاح لليعقوبى ٤/ ٤٤٩ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٢٧٦ .

والحسن يعلم كل هذا خاصة ، وأن أمه كان لها الفضل فى تشكيل حياته الدينية والعقلية ، فشبه هنا الإمام العادل بالأم الشفيقة البرة بولدها فى الرحمة والشفقة والحنان ، ووصف المشبه به بهذه الصفات (الشفيقة البرة الرفيقة) يزيد من عمق المعنى الذى يريده الحسن من هذا التشبيه ، فاختار من الصفات ما هو الأليق بالأم ، ولا يكون إلا فيها فالشفقة هنا رحمة يغلفها الخوف على وليدها ، ولذا اختارها بدلاً من التعبير بالرحمة ليلمس هذا المعنى السابق ، وتأتى البرة ، والتى تحمل معنى أكبر من الشفقة وهو حسن الرعاية والتنشئة ، وصوت الراء برقته يحمل كل معانى الحنو والدفء ، ويزداد المعنى تألقاً بالوصف (الرفيقة) والذى يتسع ليشمل اللين ، وحسن الرفقة ، هذا وقد تتابعت هذه الصفات دون ربطها بالواو ليدلل على أنها متجمعة كلها فى الأم ، وكما أضاف الولد فى التشبيه السابق إلى الأب ، كرر هنا وأضافه إلى الأم ، وهنا يحمل معنى الحنان والعطف ، ثم أضاف الحسن تفصيلاً آخر فى جزئيات المشبه به ، حيث بيّن لنا معاناة الأم فى حملها ، فهى قد عانت فى حمل وليدها ، وكذلك فى ولادته ، واعتمد هنا على الطباق بين (حملته) و(وضعته) والطباق أعان فى أداء المعنى ، حيث أوجز لنا فترة الحمل ، والوضع ، فى عبارتين موجزتين ، ومن ثم لم يكن متكلفاً ، بل استدعاه الحال ، وتطلبه المقام ،كما اعتمد على تكرار السجعة الأخيرة فى قوله : (كرهاً) وهو تكرار مقصود زاد من قيمة السجع ، لأنه أظهر شدة المعاناة التى تلاقيها الأم فى حملها ، كما أن فيه اقتباساً من القرآن الكريم ، وذلك فى قوله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً .....) [١] والكره هنا مراد به الشدة ، والألم الشديد فى حمله ، ومهمة الأم لا تقف عند هذا الحد ، بل يقع على عاتقها أمر التربية ، وهى أهم مرحلة فى حياة الطفل ، والحسن فى عرضه لجزئيات التشبيه يترقى ترقياً تصاعدياً ، كل مرحلة تسلم للتى بعدها فى تناغم ، وتناسق ، والتربية هى خصوصية من خصوصيات الأم بحكم أنها تجلس مع طفلها أكبر فترة ، تصحبه خلالها بالمودة ، والعطف ، هذا وقد قال الشاعر عن الأم :

---

(١) الأحقاف : من الآية ١٥ .

الأم مدرسةٌ إذا أعددتها ***** أعددت شعباً طيّب الأعراق

وبما أن أمر التربية شيء متحقق ، وثابت من جانب الأم ، جاء التعبير بالماضى (وربته)، وعطفت هذه الجملة على ما قبلها ، لاتحادهما فى الخبرية من ناحية اللفظ ، والمعنى ، وهذا الوصل يسمى التوسط بين الكمالين ، ومن حسنه فى الكلام ، تناسق وتناغم الجملتين ، واتفاقهما فى الفعلية ، ودلالتهما على المضى ، كما هنا ، ويأتى الطباق (تسهر بسهره، وتسكن بسكونه) ليوضح لنا جانباً آخر من المعاناة التى تلاقيها الأم فى سبيل تربية طفلها ، فطابق بين الفعلين (تسهر) و (تسكن) ، وبين المصدرين (بسهره) ، و(سكونه) ، والطباق فى كل من النوع المعنوى ، وألح الحسن على تكرا ر الطباق مرة عن طريق المصدر ، وأخرى عن طريق الفعل ، ليبرز تمام الصورة ، وأن الأم لا تغفل عن طفلها أبداً ، فهى تسهر معه إذا سهر ، وتسكن معه إذا سكن ، ولعل السلالة، والانسيابية فى حرف السين ، والتى تتوافق مع حركة الأم فى سهرها ، وسكونها ، جعله يختار الفعل (تسهر) بدلاً من الفعل (تصحو) ، والفعل (تسكن) بدلاً من الفعل (تنام) مثلاً ، ومعلوم أن " التكرار مرتبط بقانون التردد ، من قوانين تداعى المعانى ، ولذا يعد وسيلة تربوية من وسائل التقرير "[١] ، ولعل سائلاً يسأل : لماذا توزعت حياة الأم ، مابين السهر، والسكون ؟ فأتى الجواب :

(ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى) ، ولذا فصلت عما قبلها ، والفصل هنا اتصال خفى، بل إنه فى هذا الموضع أشد اتصالاً من الوصل، لأن فيه ترابطاً ، وتسلسلاً بين المعانى ، وكأن الأول يمهد للتالى ، والتالى نتيجة للسابق ، وهكذا تجد الكلام لحمة واحدة ، لا يشذ فيه لفظ عن الآخر ، بل كل كلمة تهتف بجاراتها ، وتأنس بها ،وبين (ترضعه) و(تفطمه) طباق أبرز لنا الأحوال التى يكون عليها الطفل فى مرحلة المهد ، فهو مابين حالين: الرضاعة ، وعدمها ، ولما كان هذا الأمر يتكرر دوماً مع الأم ، جاء التعبير بالفعل المضارع ، هذا إلى جانب ما يصوره المضارع من إحضار الصورة شاخصة فى ذهن المتلقى ، وكأننا عندما نقرأ ، أو

---

(١) التكرير بين المثير والتأثير ص ١٣٦ .

نسمع هذه الفقرة نعاين بأعيننا صورة الأم ، وهى تفعل ذلك ، ونحس بمجاهدتها فى تربية طفلها فهو دائماً بعينيها لا تغفل عنه أبداً ، وتقديراً لهذا العطاء اللامتناهى جعل الله الجنة تحت قدميها ، أى فى طاعتها، والتواضع لها تكون الجنة ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (عن معاوية بن جاهمة السلمي أن جاهمة جاء إلى النبي– صلى الله عليه وسلم– فقال : يا رسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك ، فقال: هل لك من أم ؟ قال : نعم ، قال: فالزمها ، فإن الجنة تحت رجليها)[١] ، وهذه الجزئيات التى ذكرها الحسن للمشبه به ، تتنامى تنامياً تصاعدياً، فبعد مرحلة الرضاعة ، والتى يعقبها الفطام ، تأتى مشاركة الأم لولدها ، والتعبير بالولد يشمل الذكر والأنثى ، عكس التعبير بالابن فإن المعنى ينصرف إلى الذكر ، وصدق الله العظيم عندما عبر عن قتل فرعون للذكور بالأبناء فى قوله تعالى : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)[٢] ، ومشاركة الأم الوجدانية تكون فى الأفراح ، والأحزان فيقول الحسن : وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته .

والجملة هنا معطوفة على ما قبلها ، للتوسط بين الكمالين ، وهذه الجزئية هى آخر جزئية من جزئيات المشبه به ، والتى استطرد الحسن فى بيانها ، وهذه الجزئية فيها إيجاز لكل ما يعترى حياة ولدها بعد مرحلة المهد ، وقد اعتمد فيها على الطباق بين الفعلين (تفرح) و(تغتم) ، وهذا الطباق يبرز لنا مدى التباين الشديد فى حياة الإنسان ، فهو يتنازع مابين الفرح ، والغم ، والفرح بدون مشاركة الآخرين لا طعم له ، والحزن بلا معين صعب وقاس ، وخير من يفرح للإنسان بصدق ، ويحزن بحرقة هى الأم ، ولما كان فرحها ، وغمها يتجدد ، ويتكرر بتكرر الأحداث جاء التعبير بالفعل المضارع (تفرح) و(تغتم) ، فوق هذه نقله الصورة

---

(١) أخرجه النسائي في سننه ج ٦ / ١١ حديث رقم : ٣١٠٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ٢/ ٢٨٩ حديث رقم : ٢٢٠٢ .

(٢) القصص آية ٤ .

الحركية للأم ، فهى فى الفرح تنتشى ، وتكاد تطير من على ظهر الأرض ، وتنفرج أسارير وجهها ، ويعلوها الوجه الضحوك ، أما فى حزنها فحدث ولا حرج ، فتراك ترى قلبها يتقطع ، وأحشائها تتمزق ، وعيونها لا تكف عن الدموع ، ووجها ذابل ، وعقلها شارد وتائه ، كل ذلك ، لأن عواطفها صادقة ، لا تعرف الزيف والنفعية أبداً ، وزاد من إيقاع هذه الحركات أن الفقرة اشتملت على أسلوب السجع ، وقد اتفقت فيه الفاصلتان فى الوزن ، والقافية ، فهو من النوع المتوازى ، وزاد من حسنه غير القصر ، اختلاف قرينتيه فى المعنى ، فإن تكرار المعنى يكون ممجوجاً ثقيلاً ، فالأولى فيها العافية ، والثانية فيها الشكاية ، وبينهما فرق كبير فى المعنى ، يضاف إلى ذلك أن الحسن هنا ساقه سوقاً سهلاً ويسيراً ، يخدم المعنى ، ويفى بالغرض فى الكلام ، ويتطلبه المقام ، والسجع لا شك أنه هنا ساهم فى إبراز عواطف الأم المتباينة ، ورصد تأجج مشاعرها ساعة الفرح ، وساعة الحزن .

ويتابع الحسن نصائحه للخليفة عمر بن عبد العزيز فيقول : والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم.

هذه الفقرة تخص بعضاً من أفراد الأمة، هم مظنة الغبن والنسيان، وبرعايتهم يتحقق العدل ، وقد انطبعت هذه الفقرة بطابع الإيجاز والاختصار ، لأن المقام يستدعى هذا ، فاليتامى والمساكين يسيطر عليهم شعور الحرمان ، وهؤلاء وإن دخلوا فى الاهتمام السابق بالرعية على وجه العموم ، إلا أنه أعيد ذكرهم للتأكيد على وجوب رعاية حقهم على طريقة ذكر الخاص بعد العام ، وهى صورة من صور الإطناب تفيد كمال العناية بالخاص ، وكأنه جنس قائم بنفسه ، وبنى كلامه هنا على حذف المسند إليه (هو) وقال : وصى اليتامى ، وخازن المساكين ، والذى يعطى بدوره إحساساً بالعناية المباشرة بهذه الفئة ، ولم يجعل الأمير كالوصى ، وكالخازن ، بل هو الوصى ، والخازن ، على نحو ما مضى فى الصور التشبيهية السابقة ، وذلك لطبيعة هذه الفئة الخاصة ، ولشعورها المرهف الذى ينبغى ألا يخدش ، والترتيب هنا بين اليتامى والمساكين مقصود فى ذاته ، فلا شك أن مراعاة أحوال اليتامى مقدمة على بقية الحقوق فهو أشد احتياجاً من غيره ،

وذلك لحرمانه من حنان الرعاية المتمثلة فى الأب بجانب فقد الرعاية المادية لموت العائل ، يلى ذلك المساكين ، لأن المسكين يفقد الرعاية المادية فقط .

والتعريف بـــ (أل) فى اليتامى ، والمساكين لإفادة استغراق الجنس ، فمطلوب من الأمير العادل أن تشمل رعايته كل اليتامى ، والمساكين فرداً فرداً ، لا يتخلف منهم أحد ، ولن يكتمل العدل فى أى مجتمع إلا برعاية هؤلاء ، الذين هم يعيشون على حافة المجتمعات التى تتحكم فيها الدكتاتورية المستبدة ، ونسى هؤلاء أن التاريخ لم يرحم الطغاة ، بل جعل فى نهايتهم عبرة لمن يعتبر .

وللعناية الشديدة بأحوال اليتامى يأتى نهاية الفقرة قوله : (يربى صغيرهم، ويمون كبيرهم) تأكيداً لهذه العناية، ونلاحظ أن الحسن لمَّا يذكر الصغر يخصه بالتربية، فالتربية الحسنة هى الأساس فى بناء الشعوب، وقد وظف الحسن الطباق توظيفاً جيداً فى تأدية المعنى وتمامه ، واختصر به مسافات زمنية قد تشمل كل العمر كما فى هذه الفقرة عندما طابق بين (صغيرهم) ، و(كبيرهم) فهو يتعهدهم بالتربية والرعاية فى صغرهم ، ويتكفل بواجباتهم ، وأعباء حياتهم ، وهم كبار ، كما لا ينسى دور السجع فى هذه الفقرة ، وخاصة إذا كانت كل سجعة تشتمل على معنى مختلف عن سابقتها كما هنا فالأولى أفادت حسن التربية فى الصغر ، والثانية أفادت العون والمئونة للمساكين ، ومن ثم فقد انتقد ابن الأثير تكرار المعنى الواحد فى جمل سجعية متتالية ، وذلك لما فيها من التطويل ، ولذا نراه يشترط " أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها "[(١)]

يضاف إلى هذا أن السجع عند الحسن لم يكن متكلفاً ، بل تطلبه المعنى ، وفى هذا يقول شيخ البلاغيين الشيخ عبد القاهر الجرجانى : أنه لا يوجد " تجنيس مقبول ، ولا سجع حسن حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه ، وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغى به بدلاً ، ولا تجد عنه حولاً " [(٢)] .

ولما كان اليتيم يحتاج إلى من يدير له شئونه جعل الإمام كالوصى عليه

---

(١) المثل السائر لابن الأثير ١/ ١٩٩ .

(٢) أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجانى ص ١١١ .

يتفقد أحواله كلها ، ويصبح مسئولاً مسئولية تامة عن جميع حياته من مسكن ، وملبس ، ومطعم ، ورعاية وتربية ، أما المساكين فقد جعل الإمام خازنهم ، الذى يوفر لهم كل ما يحتاجون إليه حتى يحيون حياة كريمة ، ولا يقوم بأعباء هذه الرعاية إلا من كان له قلب يعرف الحنان والعطف ، ولذا ترتب على الكلام السابق هذه الفقرة ،التى يشبه فيها الإمام العادل ، بالقلب بين الجوارح .

فيقول : والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده .

والحسن رضى الله عنه دقق فى اختيار المشبه به (القلب) دون غيره من أعضاء الجسم ، لأن عليه مدار الصلاح والفساد ، وهو هنا متأثر بالبيان النبوى فى حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (.. ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) [١] .

ومن عجيب هذا القلب أنه موطن للصلاح والفساد ، وقد استعان الحسن فى إبراز هذا التناقض بالطباق بين (تصلح) ، (تفسد)، وأكد الطباق بين الفعلين بالطباق بين المصدرين (صلاحه) ، و(فساده) ولما كان الألفاظ المكررة هنا تحمل نفس المعنى السابق عد العلماء مثل هذا التكرار من قبيل الإطناب ، وذلك ليقرر ويؤكد على أن القلب لا غيره بتحكم فى صلاح الإنسان أو فساده ، كما أنه يشى برغبة الحسن الشديدة فى إصلاح أمر الناس ، وفى اختيار المضارع (تصلح)، و(تفسد) دلالة على التجدد والاستمرار ، وكأن القلب السليم يواصل إصلاحه عبر الأيام والسنين ، وكذلك القلب المريض صاحبه لا يكف عن أذى الناس ، وإضلالهم ، والإمام صاحب القلب السليم هو الذى ينفذ أوامر الله ، ويبتعد عن نواهيه ، ويحاول جاهداُ إصلاح شأن رعيته .

---

(١) جزء من الحديث ورواه البخاري في الصحيح عن أبي نعيم الفضل بن دكين وأخرجه مسلم من أوجه عن زكريا بن أبي زائدة (١٠١٧٠) ، والبيهقي في سننه الكبرى ٥ / ٢٦٤ حديث رقم: ١٠١٨٠

الإمام العادل هو القائم بين الله ، وبين عباده :

يقول الحسن رضى الله عنه : والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال ، وشرد العيال فأفقر أهله وفرق ماله.

فى هذه الفقرة يعلى الحسن من مكانة أمير المؤمنين ، فيجعله وسيطاً بين الله ، وبين العباد ، وكأنه نبى مرسل يتلقى الوحى ، ويبلغ أوامر الله ونواهيه ، وفى هذا رفع لمكانة أمير المؤمنين إلى ذروة سنام الرفعة والرقى ، وبدأ هنا بالأسلوب الخبرى فى عبارته (والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده) ليؤكد حقيقة مفادها أن صلاح الأمير تؤهله إلى أن يشغل هذه المكانة ، والخبر لا يقل دوره عن الإنشاء فى تأدية المعنى ، إذ أنه يشى هنا إلى التسليم بأن مهمة الإمام تكون فى مراعاة أوامر الله ونواهيه ، واعتمد على أسلوب التكرار ، فكرر لفظ الجلالة (الله) فى هذه الفقرة أكثر من مرة ، وكثيراً ما يعتمد الحسن البصرى على تكرار لفظة واحدة فى جمل متوالية " لما تحمله من شحنات دلالية ذات أثر على المعنى الكلى الذى يريد أن يؤكده ، أو الإحساس الذى يريد أن يستثيره [١] ، وكرر هنا لفظ الجلالة (الله) وذلك استحضاراً لجلال الله وعظمته فى هذه المواقف التى يجب أن يقدر فيها الخليفة عظم المسئولية التى يتولاها لله فى الناس [٢] و الحسن فى كلامه السابق كان يتوجه بالخطاب للأمير مباشرة ، أما فى هذه الفقرة فتحول من الخطاب إلى الغيبة ، ولا شك أن تنويع الكلام عن طريق الالتفات يجعله أكثر تطرية ، وترويحاً على النفوس ، وبناء عبارة (هو القائم) على أسلوب المبتدأ والخبر أكد على عظم المهمة المنوط بها الإمام ، كما أن عبارة (يسمع كلام الله ، ويسمعهم) تبين الدور العظيم الذى يقوم به الحاكم

---

(١) ينظر :مختارات من أدب العرب منذ البعثة حتى نهاية العصر الأموى د / صلاح رزق ، والسعيد شوارب ص ٢٨٢ .

(٢) ينظر : المرجع السابق ٢٨٣ .

تجاه رعيته ، والمعنى يشى بأن الحاكم لابد أن يكون عالماً بالحلال والحرام ، وعارفاً بأوامر الله فيحملهم عليها ، وبنواهيه فيدفعهم عنها ، وكلام الله هنا هو أحكام قرآنه ، وسماعه من قبل الله على سبيل المجاز ، والذى أسهم فى بيان منزلة الإمام ومكانته ، وعظم المسئولية الملقاة عليه ، كما أن نظر الإمام إلى الله على سبيل المجاز أيضاً ، ويقصد به مراعاة الإمام لأحكام الله ، وبيانها للناس وتحرى العدل فى إقامة شرع الله، ثم يلتفت الحسن من أسلوب الغائب إلى الخطاب فيقول: (فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده ...) ، والنهى هنا على سبيل النصح والإرشاد ، وقد أعقب النهى النداء فى قوله :(يا أمير المؤمنين) ، وفى هذا دلالة على عظم ما يتوجه إليه النهى ، وعلو شأنه ، والفاء فى قوله : (فلا تكن) تبين عاقبة من لم يعمل بهذه النصائح ، ويضيع المسئوليات ، ويعود الحسن إلى التشبيه ، لأنه أقرب الصور البلاغية إلى منهج التربية ، كما أنه يستعين به ليصور لنا جسامة وشناعة المسئولية ، فيشبه حال أمير المؤمنين فيما ملكه الله من قوت العباد ، ومراعاة مصالحهم ، ولكنه قصر فى أدائها ، بالعبد الذى استأمنه سيده على ماله ، واستحفظه على عياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، وكعادته يستطرد فى بيان حال المشبه به ، ولا شك أن الاستطراد أفاد تأكيد المعانى التى يقصدها الحسن من وراء هذا التشبيه ، فحمل أمانة المال والعيال ليس بالأمر الهين ، بل يتبع التفريط فى رعايتهما عواقب وخيمة كتبديد المال ، وتشريد العيال والفقر ، وكأنى به يرمى بهذه المعانى فى نفس أمير المؤمنين كى لا تغيب عن ذهنه أثناء إدارته لشئون رعيته ، والاستطراد فى المشبه به اشتمل على أسلوب اللف والنشر فى قوله : واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال ، وشرد العيال ، كما لا يخلو هذا الأسلوب من التفصيل بعد الإجمال ، وهو من صور الإطناب التى تزيد من تمكين المعنى فى النفس، وكأن الكلام يكرر مرتين ، مرة عن طريق الإجمال ، وأخرى عن طريق التفصيل ، وإذا حصل المعنى بعد ذلك كان له وقعه وأثره فى نفس المتلقى ، كما أن التضعيف فى الفعلين (فبّدد) و(شّدد)، يوحى بكثرة الفساد الذى وصل إلى درجة الإسراف من جهة من أوكل له مهمة حفظ المال ، ورعاية

الأولاد ، فأهملهما مما ترتب عليه خسائر فادحة ، وهذا مالا يريده الحسن أن يقع فيه أمير المؤمنين ، ووجود الفاء فى قوله : (فبّدد المال) ، بعد جملة استحفاظه المال والعيال يشى بأن هذا العبد لم يتمهل قليلاً فى عدم حفظه للأمانة ، وهو شأن كثير من أمثاله فى واقعنا ، فما إن غاب سيده إلا وأسرع بالتبديد والتشريد ، وكأن غياب سيده هو الذى أوحى إليه بذلك ، وهكذا شأن الإنسان إذا غاب عن ذهنه مراقبة خالقه ، فإن نفسه تسول له ما تريد ، وبهذا يرمى الحسن بوجوب الخوف والمراقبة فى قلب الأمير ، حتى يحسن إلى الناس ، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فلا بد للأمير أن يكون يقظ الضمير ، فلا يبدد المال ولا يشرد الرعية ، ويورثها الفقر ،أما الفاء الثانية فى قوله:(فأفقر أهله وفرق ماله) فهى للترتيب مع التعقيب ، وكأنها تشى إلى سوء النتيجة الحادثة من سوء المقدمة ، فلا شك أن الإسراف فى المال يؤدى حتماً فى النهاية إلى الفقر ، وعدم حفظ حقوق العباد ، وهذا أمر يخشاه الحسن على أمير المؤمنين ، ولا ننسى دور السجع فى هذه الفقرة وإيصاله التحذير الذى أراده الحسن من وراء التشبيه بهذا العبد الذى استأمنه سيده على ماله وولده ، فكانت النتيجة هى تبديد المال ،وتشريد العيال ،وفرقة الأهل والمال وصاغ هذه النتيجة بأسلوب السجع ، ووظفه توظيفاً نفسياً ، نقل به إحساسه وخوفه وترهيبه فى أن يكون مصير الإمام مع رعيته مثل هذا ، وقد أشاد العلماء بالأثر النفسى للسجع يقول ابن جنى فى ذلك : فلو لم يكن المثل مسجوعاً لم تأنس النفس إليه ، ولا أنقت لمستمعه ، فإذا كان كذلك لم تحفظه ، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له، وجيء به من أجله " [(١)] ، ومعنى ذلك أن بنية المثل المعتمد للسجع يؤثر فى النفس ، ثم ينعكس هذا الأثر على عمليتى الاستيعاب والاسترجاع عند المتلقى ، وغياب هذه البنية يصعب على المتلقى الاستيعاب والاسترجاع ، وهذا ما قصده الحسن من السجع هنا .

وقد ترتب على الجمل السابقة ، والتى كانت مدخلاً للترهيب والتخويف ، أن اعتمد الحسن البصرى هذا الأسلوب فى الفقرة التالية .

---

(١) الخصائص لابن جنى ، تحقيق / محمد على النجار ١ / ٢١٦ – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٦ هـ .

- أولى الناس باتباع حدود الله ، والعمل على إقامتها الإمام ، وهو القائم على تنفيذ القصاص :

يقول الحسن – رضى الله غنه –: واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود[١] ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ [٢] وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟ .

بدأ هذه الفقرة بالفعل (اعلم) وهو على سبيل النصح والإرشاد ، وأعقب الأمر النداء (يا أمير المؤمنين) للدلالة على أن المأمور به شيء مهم ، وأمر عظيم ينبغى الإنصات إليه ، والتأكيد فى قوله : (أن الله أنزل الحدود) يتناسب مع مقام الترهيب والتخويف ، كما أن التأكيد مقصود به إيقاظ العقيدة الإيمانية عند أمير المؤمنين ، والأمير لا يجهل الحدود ، ولا ينكرها ، ولكن إذا عطلها أصبح حاله كحال من ينكر فلذا أكد له الكلام ، كما لا يمنع أن يكون التأكيد هنا مراعاة لحال المتكلم ، لأن نفس الحسن امتلأت إحساساً ويقيناً بهذا المعنى وهو إقامة شرع الله ، حتى يتحقق العدل فى الأرض ، وسمى العقاب حداً للتغليظ والتشنيع على كل من يقترف ذنباً ، أو فحشاً فى حق الرعية ، واللام فى قوله : (ليزجر) لام التعليل ، والتعليل هنا وضح المعنى وقواه ، خاصة التعليل فى مقام الإقناع بالحكم ، فإن ذكر العلة للشىء المساق بيانه أدعى للنفس فى قبوله والرضا به ، ولما كان فعل الخبائث والفواحش من الأفعال التى جلبت عليها طبائع الناس ، ويتجدد حدوثها جاء التعبير بالفعل المضارع (ليزجر) ، ليصور هذه الحقيقة ، كما أن جمع لفظى (الخبائث) و(الفواحش) يوحى بكثرتها بين الناس ، وللمبالغة فى التقريع أتى بالاستفهام فى قوله : (فكيف إذا أتاها من يليها؟) ، وهو استفهام إنكارى مشفوع بالتعجب ، واللوم ، وشدة الأسى ، وهذا الاستفهام فيه إشارة خفية إلى ظلم الولاة لرعاياها ، وكأنى بالحسن ينظر إلى واقعنا المعاصر ، والذى كثر فيه فساد الطغاة والولاة فى كثير من أمصارنا ، فأقاموا الحدود على غير المذنبين ، وعفوا عن

---

(١) الحدود : عقوبات مقدرة وجبت على الجانى .

(٢) أتاها : فعلها ، يليها : يملك أمرها ويقوم بها .

المذنبين ، وتلك شريعتهم ومنهجهم ، التى ما أنزل الله بها من سلطان ، واختص حد القتل دون غيره من الحدود فى قوله : (وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده) ، لأنه من أعظم الفواحش ، وفيه هدم للمبادئ الإنسانية النبيلة ، وهو دليل على القهر والظلم ، مما يترتب عليه محق للمجتمع ، وإيقاع الضرر به ، وتأكيد الخبر هنا يتناسب مع حال هؤلاء الذين يقدمون على هذا الجرم ، لأن ضمائرهم ماتت ، ومشاعرهم انعدمت ، ولذا جعل الله إزهاق النفس بدون وجه حق ، هو موت للبشرية جميعاً ، وإحياؤها والعفو عنها إحياء لها كذلك ، قال تعالى فى بيان عظم جريمة القتل :(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً..)[١]، والحسن فى هذه الفقرة مقتبس من القرآن الكريم ، وذلك فى قوله تعالى : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[٢] ، وتنكير حياة هنا أفاد التعظيم ، أى حياة عظيمة ، وجعل القصاص حياة ، لأن القاتل متى عرف أنه سيقتل امتنع عن القتل ، وترتب على هذا الامتناع حياة للآخرين ، ولا يخفى ما فى الآية من بلاغة الإيجاز .

ثم يأتى الاستفهام فى قوله : (فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟) ، وهو استفهام إنكارى ، مشفوع باللوم والتعجب ، وفيه إيحاء بأن الحاكم لا ينبغى أن يكوناً عوناً للظالمين فى إزهاق أرواح رعيته ، ولكن ينبغى أن يكون عوناً لهم فى أخذ حقوقهم ، ونيل مطالبهم ، ولما كان هذا القتل حادثاً بالفعل جاء التعبير بـــ إذا ، وهى تكون فى الخبر المتحقق الوقوع ، ويؤكد هذا المجيء بالفعل الماضى (قتلهم) لأنه يفيد تحقق وثبوت الأمر سلفاً ، وكأن الحسن يحيل أسماع الناس إلى ماض يعرفونه ، وأحوال عايشوها ، وعاينوا فيها الظلم من الولاة بأم أعينهم ، وليس مشهد الحجاج بن يوسف الثقفى مع رعيته عنهم ببعيد ، ولا شك أن توالى الاستفهام فى هذا الفقرة يوحى بمدى الحيرة ، والدهشة ، والتعجب من أمر من يلى

---

(١) المائدة من الآية ٣٢ .

(٢) البقرة آية ١٧٩ .

أمر الناس ، ثم يحيد عن منهج الله ، ولا يسير على طريقه ، ومن يفعل ذلك فهو ذاهل عن الآخرة ، غرته الدنيا ببريقها الزائف ،وهو فى غفلة لا يفيق منها إلا بالموت، ولذا ترتب على الفقرة السابقة ما يلى :

تذكر الموت ، وحياة الإنسان فى القبر ، هى الباعث على يقظة الضمير ، وإعداد الزاد لمنزل تطول فيه الإقامة بلا جليس أو ونيس .

يقول الحسن – رضى الله عنه – : واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر. واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك [١] ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً. فتزود له ما يصحبك (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ)[٢] واذكر يا أمير المؤمنين (إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) [٣] ، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

لما كان ارتكاب الفواحش ، وتضييع الحدود ، أمرًا يكون ممن غفل عن الآخرة ، وغرته الدنيا ببريقها ، فهو فى غفلة لن يفيق منها إلا بالموت لذا جاء قوله : (واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده .....) ، تذكيراً بالموت والآخرة ، وإيقاظاً من الغفلة ، وأمير المؤمنين لا شك أنه يذكر الموت ، ولكن الحسن نزله منزلة الذى غفل عنه ، وشغلته الإمارة عنه ، والأمر فى قوله : واذكر، على سبيل النصح والإرشاد ، كما أنه يشى بصدق عاطفة الحسن فى النصيحة ، ولا شك أن الموت خير واعظ للإنسان ، ومن ثم ينبغى الاستعداد له ، لأن سطوته تغتال النفوس ، ولا يملك الإنسان ما يدفعه به ، فإذا كنت تتمتع فى حياتك بكثرة الأشياع والأنصار ، فعنده يقل الأشياع والأنصار ، ولعل الطباق بين (عنده) و(عليه) صور لنا هذا التناقض ،واضطراب النفوس عنده ، والتعريف فى الموت للعهد أى الموت المعهود

---

(١) ثواؤك : إقامتك واستقرارك .

(٢) عبس آية ٣٤– ٣٦ .

(٣) العاديات آية ٩ – ١٠ .

بين الناس ، كما أن فى قلة الأشياع والأنصار عنده يشى بأن الحاكم مطلوب منه أن يتحرى الدقة فى بطانته ، وأشياعه ، والحسن لا يقف عند حقيقة الموت ، وإنما جل تركيزه على ما بعد الموت حيث دار الحساب والعقاب ، وما ينبغ أن يعد لهذا اليوم ، ولذا فالفاء فى قوله : (فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر) للتعقيب أفصحت عن كلام محذوف ،فكأنك إذا ذكرت الموت ، وحالك عنده فما ينبغى عليك فعله ، فأتى قوله : (فتزود) ليفى بهذا المعنى ، ولذا فصلت الجملة عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، وقد قال البلاغيون : إن هذا الفصل وصل خفى ، أى إنه وصل بغير أداة الوصل التى هى الواو ، فالوصل فيه يعتمد على اتصال المعنى ، وهو مظهر من مظاهر نشأة المعانى بعضها من بعض ، وتمهيد بعضها لبعض ، حتى كأن الجملة الثانية تتولد عن الجملة الأولى، وكأن الأولى مهاد للثانية ، وإرهاص بها ، وهذا يفهم من قول البلاغيين فى هذا الاستئناف : إنه جواب عن سؤال مقدر يتضمنه الكلام السابق ، أى أن الكلام السابق يثير فى النفس خواطر تقتضى هذا الكلام وتستدعيه ، فيأتى كفاء لحاجة النفس ووفاء لها "[١] والزاد هنا هو فعل الخيرات التى تقيك من الشرور ، وتطمئن نفسك عند الفزع الأكبر يوم القيامة ، ويستطرد الحسن فى أسلوب الترهيب والتخويف فينتقل إلى حياة البرزخ انتقالاً تصاعدياً فيقول : واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ..... ويعود الحسن لفعل الأمر ثانية (واعلم) والذى أفاد النصح والإرشاد ، ولا شك أن تكرار الفعل يوحى بالاهتمام " فالمتكلم إنما يكرر ما يثير اهتماماً عنده ، وهو يحب فى الوقت نفسه أن ينقله إلى نفوس مخاطبيه ، أو من هم فى حكم المخاطبين ممن يصل إليهم القول على بعد الزمان والديار "[٢] ، وتأكيد الخبر فى قوله : (أن لك منزلاً غير منزلك ...) يتناسب مع حال المخاطب الذى ربما يكون قد غفل ، أو سها عن حياة القبر وما فيه من عظات وعبر ، وهذه الفقرة مترتبة

---

(١) ينظر: من أسرار التعبير القرآنى دراسة تحليلية لسورة الأحزاب د / محمد أبو موسى ص ٥٠ ، ٥١ – طبعة مكتبة وهبة – الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

(٢) التكرير بين المثير والتأثير ص ١٣٦ .

على سابقتها ، فبعد حديث الموت ، يأتى الحديث عن القبر ، فالعطف فيها ربط بين معانى المفردات والجمل ، وجعلها تخرج من رحم واحد ، ولما اتفقت الجملتان فى الإنشائية لفظاً ومعناً ، ولم يكن هناك ما يدعو إلى الفصل بينهما، كان الوصل الذى يعرف عند البلاغيين بالتوسط بين الكمالين ، وقد حسّن العطف هنا الترابط الشديد بين الجملة الثانية (واعلم .....) ، والجملة الأولى (واذكر....) فكلاهما فعل أمر ، وهذا التناسب من شأنه أن يزيد الوصل حسناً ، ويضفى عليه جمالاً وبهاء ، وفى تقديم الجار والمجرور (لك) إفادة للاعتناء والتنويه بشأن الأمير ، وتنكير (منزلاً) لإفادة التفخيم والتهويل ، كما أن النكرة هنا تشى بالغرابة ، أى غرابة المكان ووحشته ، أما الإضافة فى (منزلك)، فجعلت المنزل معروفاً ، وهو منزله فى الدنيا، ولا شك أنه كان يأنس فيه بالأحباب ، والأصحاب، والأنصار، وكأن النكرة ، والمعرفة ، هنا قابلت بين مكانيين متناقضين ، مكان فيه الأنس ، وآخر فيه الوحشة، ثم يشير الحسن إلى طبيعة هذا المنزل ، ومخالفته لمنزل الدنيا عن طريق المقارنات ، والتى اعتمد فيها على أسلوب الحذف ، اعتماداً على ذكاء المتلقى ، كما أن للحذف فوق فضيلة الإيجاز، فضلاً فى توسيع المعانى ، وجعل النفس تذهب فيه كل مذهب ، وقد قال عنه الشيخ عبد القاهر الجرجانى : هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن " [(١)] ، وكأن الحسن فى هذه الفقرة يقول : إذا كان المقام فى الدنيا قصيراً ، فإنه فى البرزخ طويلاً ،بالقياس إلى الحياة الدنيا ، وإذا كنت فى الدنيا بين أحبابك ، فأنت فى هذا المقام يفارقك كل أحبابك ، وإذا كنت فى الدنيا فى جمع من صحبك وأهلك ، فأنت فى هذا المقام وحيداً فريداً ، وإن كان المحذوف هنا يدل عليه سياق الكلام ، إلا أنه أضفى على الصورة جواً مفعماً من الرعب ،والفزع ، والتخويف ، وهذه الأمور الثلاثة جزء من شخصية الحسن – رضى الله عنه – ، ولما كان هذا الأمر يحتاج إلى تذكير يقرع الآذان أتى السجع فى

---

(١) دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجانى ١٧٠ تحقيق / محمود شاكر– مطبعة المدنى – القاهرة .

قوله : (يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك) ، وهو سجع مفعم بالآنين ، والآسى ، كما أن ختم السجعة بصوت الكاف زاد من الإيقاع داخل المعنى ، وصبغ الموقف بصبغة الفزع ، وشدة الألم ، فعظم سلطان المعنى على النفس المرهفة الحس ، الوجلة اللوامة ، " وليس هناك معنى للاستخفاف بهذه الميزة البلاغية ، وقد أثبتت الدراسات الجادة أثر الصوت فى يقظة النفس ، وفعله البالغ فى بعث رؤاها وذكرياتها ، وقد كان سلفنا من علماء هذه الأمة يدركون هذه الحقيقة إدراكاً واعياً ، ويؤكدون أن الأصوات والأجراس أفعل فى النفس من الصور، والمعانى ، والأفكار ، وأن هناك فى السراديب الخفية المضمرة أحاسيس ومشاعر ، لا تبعثها إلا رنة الصوت فى تنظيم وتتابع ، وحسبى هنا أن أقول : إن الكلمة التى كانت تقع فى النفس الهادئة هدوء القرار فتحيلها هادرة كغضبة الموت ، أو تقع فى النفس الهادرة فتحيلها وادعة ساكنة ، لم تكن الكلمة لتفعل ذلك إلا لأن كل صوت فيها ، وكل نبرة ، كأنه نفثة من نفثات السحر ، تفعل فى الروح فعل الأعاجيب " [١] .

والتعبير بالمضارع فى قوله : (يطول) و (يفارقك) فيه استحضار لهذه الصورة المرعبة ، والمخيفة ، ودائماً يساق المضارع فى الأحداث المهمة ، ولا شك أن الحديث عن القبر فى هذه الرسالة من الأهمية بمكان ، لأن فى تذكره إيذاناً بتغير وتبديل حياة الناس من الشر إلى الخير، كما أن المضارع يفيد التجدد والاستمرار ، وكأن هذه الإطالة والمفارقة حدث يتتابع وقوعه ، وتتوالى صوره ، فوق هذا أنات النفس ، وهمهماتها عندما يقرع أذنها الإطالة فى مكان موحش ، فيه يفارق الإنسان أحبابه، وخلانه ، وأهله ، وبهذا يلتقى صوت الكلمات مع المعنى المراد ، ويزيد الحسن فى بيان حال الإنسان فى القبر فيأتى قوله :(يسلمونك في قعره فريداً وحيداً) تأكيداً للجملة قبله وهى قوله :(ويفارقك أحباؤك) ولذا فصلت عما قبلها ويسمى هذا الفصل عند البلاغيين كمال الاتصال ، حيث اتحدت الجملتان اتحاداً تاماً ، بحيث تنزل الجملة الثانية من الأولى منزلة نفسها ، فلا شك أن الوحدة والانفراد ،

---

(١) من أسرار التعبير القرآنى دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ص ٣٢٤، ٣٢٥- مكتبة وهبة – الطبعة الثانية ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .

تعنى فقد الأحباب ، والمقتضى للتأكيد عند البلاغيين : هو دفع توهم التجوز والغلط[١] بمعنى أن المتكلم يدفع بجملة التوكيد توهم السامع تجوزاً أو غلطاً ، وبذا يتقرر المعنى الذى يقصده المتكلم ، والحسن قصد هنا بيان حال الإنسان فى القبر حيث الوحدة ، والوحشة ، وفقد الأحبة ، واعتمد فى كل هذا على أسلوب الترهيب ، وهو نهج نهجه كثيراً فى خطبه ، ورسائله ، ثم تأتى جملة (فتزود له ما يصحبك) تعليلاً للحكم السابق ، وهى جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ، وكأن سائلاً يسأل : ماذا يفعل الإنسان قبل نزول هذا المنزل ؟ ، فأتى الجواب فتزود له ما يصحبك ، والفصل هنا فى قوة الوصل ، لأنه اتصال بين المعانى ، وترتب بعضها على بعض ، وأخذ الكلام بعضه برقاب بعض ، وكأنه شحمة واحدة ، ونسيج واحد يمثل أدق مظاهر الاعتلاق والترابط بين عناصر البنية اللغوية المعبرة المصورة ، وعن طبيعة البحث فى هذا الباب أعنى الفصل والوصل يقول أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى : هو بحث يقوم على جانب من جوانب المعانى ، هو هيئاتها التى بنيت عليها ، وهل جاءت معانى مستقلة كل معنى فيها هو أصل بنفسه ، أم أن بعضها تولد من بعض ، وبنى على بعض ، وتشكل وتكون من خلال الترابط والتداخل [٢] ، كما أنه يتناول مقاطع الكلام ومفاصله عند منتهى أجزاء معانيه ما كبر منها ، وما صغر [٣] ، وكل هذه المعانى رمى إليها تعبير الحسن السابق فرأينا أن الوحدة فى القبر هى نتيجة مترتبة على دخول الإنسان إليه ، وترتب على ذلك معنى آخر هو فقد الأحبة والأصحاب ، وهكذا تتولد المعانى بعضها من بعض ، وكأنها من رحم واحد .

هذا وقد أكد الحسن هذه المعانى بالاقتباس من القرآن الكريم فى قوله تعالى : (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ) [٤] وكأن ما يقصده الحسن

---

(١) الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ٣/ ٣٠ ، ٣١ ضمن شروح التلخيص – مطبعة السرور

(٢) ينظر: مدخل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى د / محمد أبو موسى ص ٢٨٤ – طبعة مكتبة وهبة – الطبعة الأولى .

(٣) ينظر :دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى ص ٢٦٨ – طبعة مكتبة وهبة .

(٤) عبس آية ٣٤ – ٣٦ .

من الاستدلال بهذه الآية بيان أن كل إنسان مسئول عن نفسه ، ولا فائدة ترجى من الغير يوم القيامة مهما كانت درجة قرابتك منه ، فالكل ساعتها مهموم بنفسه، ولن ينفعك أيها الأمير، وأيها الحاكم إلا عملك ، فهناك ستسلب كل سلطاتك التى كنت تقطع بها رؤوس العباد فى الدنيا ، ولن تجد نصيراً من هؤلاء الذين دفعوك على ظلم الناس ، وزينوا لك الحياة الدنيا، وخلدوك فيها ، فلن ينفعك الأخ ، ولا الأم ، ولا الأب ، ولا الزوجة ، ولا الأولاد .

ثم يعود الحسن مذكراً أمير المؤمنين على سبيل النصح والإرشاد قائلاً : واذكر يا أمير المؤمنين (إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُور)[١] ، وقد عطفت هذه الجملة على ما قبلها لاتحادها معها فى الإنشائية ، وهذا العطف يسمى عند البلاغيين بالتوسط بين الكمالين ، وكأن الحسن هنا ينبه إلى شيء غفل عنه الكثيرون ، عندما يبعث الله الروح فى الأجساد التى بليت على مر السنين ، ويعلم ما فى النفوس من ضمائر، وأخلاق ، ويبدو لهم من الله مالا يحتسبون ، " وهو مشهد عنيف مثير . بعثرة لما في القبور . بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير . وتحصيل لأسرار الصدور التي ضنت بها وخبأتها بعيداً عن العيون . تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسي . . فالجو كله عنف وشدة وتعفير!

أفلا يعلم إذا كان هذا؟ ولا يذكر ماذا يعلم؟ لأن علمه بهذا وحده يكفي لهز المشاعر . ثم ليدع النفس تبحث عن الجواب ، وترود كل مراد ، وتتصور كل ما يمكن أن يصاحب هذه الحركات العنيفة من آثار وعواقب ! " [٢] .

ولذا فليوطن الأمير ، وغيره على هذه الحقيقة الواقعة لا محالة ، ويختم الحسن كلامه فى هذه الفقرة بقوله : فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. ، وكلامه هنا من وحى القرآن الكريم ، ومقتبس من قوله تعالى : (... مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ....)[٣] ، ولاشك أن

---

(١) العاديات آية ٩ ، ١٠ .

(٢) فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ٨ / ٨٦ – طبعة دار الشروق .

(٣) الكهف من الآية ٤٩ .

الذى ألجأ الحسن إلى هذه الاقتباسات هو التعليل لأمور أخروية ، والقرآن أبلغ من تحدث عنها ، ورصد حركتها ، وجسد مشاهدها ، وأيقظ الناس من الغفلة والنسيان .

وجملة: (فالأسرار ظاهرة) ، تعليل للحكم السابق فى الآية القرآنية ، ألا وهو ظهور كل ما كتمته الصدور ، وتعليل الحكم فى مقام الإقناع أدعى لقبول النفس بالحكم ، كما زاد المعنى تأكيداً بالقصر فى جملة :والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ومعلوم أن أسلوب القصر يفيد تأكيد المعنى ، والنفس البشرية فى حاجة إلى التأكيد ليقتلع منها الحيرة ، والتردد والشك ، والإنكار، كما لا يغفل دوره فى مقامات الحسم والقطع ، وجملة القصر هنا المقصور ، والمقصور عليه وصفان ، ومن ثم يحمل الأمر على التأويل ، وفى ذلك يرى البعض أنه " إذا كان الطرفان وصفين كقوله تعالى : (وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً) [١] أوّل الثانى بالموصوف فهو من قصر الصفة على الموصوف "[٢] ، ولكن هذا ليس شرطاً فما كان أقرب منهما إلى الوصف حمل الكلام عليه سواء كان المقصور ، أو المقصور عليه ، فالآية هنا معناها : لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدَّها وحسبها ، أو أحاط بكل صغيرة وكبيرة ، والإحاطة تعنى الشمول فتوصف به ، ولذا صح أن يكون المقصور موصوفاً ، وأحصاها المقصور عليه صفة ، ويكون القصر هنا قصر موصوف على صفة ، وقد أدى القصر دوره فى إيصال المعنى الذى أراده الحسن هنا ، من إيقاظ غفلة الغافل ، وتنبيه الساهى واللاهى ، فيتحرى الإخلاص والصدق فى كل عمل يعمله ، لأن الكتاب لا يترك شاردة ، ولا واردة إلا وعدها وحسبها على الإنسان .

---

(١) النساء من الآية ١٢٠ .

(٢) أساليب القصر فى القرآن الكريم – د / صباح دراز ص ٢٤ – مطبعة الأمانه – الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م .

- اغتنام المهل قبل حلول الأجل ، وتضييع الفرص ، والسعى إلى إقامة عدل الله بين الناس بفقه وفهم ،والتثبت فى تعيين الولاة .

يقول الحسن – رضى الله عنه – : فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل. لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين؛ فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك.

لما فرغ فى الفقرة السابقة من تحذير الأمير من أمر الآخرة ، وأن الكتاب لا يترك صغيرة ، ولا كبيرة إلا عدها وحسبها على الإنسان ، فإن الفرصة مازالت مواتية للإصلاح من خلال فترة الدنيا القصيرة ، فجاءت كلمة (الآن) صرخة قوية تقرع الآذان ، وكأنها توقف الإنسان عن التمادى فى ملذات الدنيا ، وتنبهه إلى لحظة يقف فيها مع نفسه (فالآن يا أمير المؤمنين) وظرف الزمان هنا يمتد فى عمق السنين ، ويتجاوز الأمير وغيره ، ليشمل البشرية جمعاء ، فالكل محتاج إلى هذه الوقفة ، ليعيد حساباته ، ويغير من مساره، حتى ينجو من شرك النار يوم القيامة ، وكأن هذه الجملة فاصلة بين زمنين ، زمن ما قبل القبر ، وزمن ما بعده ، وفى هذا دقة الإيجاز والاختصار، فقد صادف فى النفس موقعاً ، وأثراً ، ثم يأتى التفصيل بعد الإجمال فى قوله : وأنت فى مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل ، ليزيد من حسن الكلام ، لأن النفس تكون متشوقة إلى ما يكشف عنها الشيء المجمل ، فإذا ما أدركته بعد هذا وقر المعنى فى النفوس رسوخاً ، وتمكن منها أيما تمكن ، لأن التفصيل بعد الإجمال بمثابة تكرار المعنى مرتين ، مرة بطريق الإجمال ، وأخرى بطريق التفصيل ، كما أن فى " التفصيل بعد الإجمال تكمل لذة العلم بالمعنى ، لأن الإجمال يشعر به فيقع فى النفس تشوقاً وطلباً له ، فإذا نيل بالتشوق والشوق ، كان ألذ بخلاف ما إذا نيل بلا شوق وطلب "[1] واعتمد الحسن على أسلوب السجع ، والذى طوعه هنا لإيقاظ الإنسان من غفلته ، وتسرب الأمل

---

(١) مواهب الفتاح لليعقوبى ٣ /٢١٠ ضمن شروح التلخيص

من نفسه ، وجملة السجع أتت كتوطئة ، وتمهيد لجملة النواهى التى ستكرر فى كلامه فيما بعد ، وأولها قوله : لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين . ، وقد فصلت هذه الجملة عما قبلها ، لأنها وقعت جواباً عن سؤال مقدر، فكأن سائلاً يسأل ماذا أفعل فى هذا الموقف ؟ فأتت الجملة الثانية عن هذا السؤال ، والنهى فى هذه الجملة على سبيل النصح والإرشاد ، كما أن فى إضافة العباد لله دلالة على أن الحكم فيهم لا بد أن يكون حكم شرع الله ، لا حكم الهوى ، والجهلاء ، ووقوع النداء بعد النهى أعطى له أهمية ، لما فى هذه الأداة من التنبيه ، واليقظة ، وتهيئة العقل لأن يعى ما يلقى إليه ، وإضافة الحكم للجاهلين على سبيل الاختصاص ، كما أن فى صيغة اسم الفاعل (الجاهلين) دلالة على تأصل الجهل والحماقة فيهم ، وإسناد الحكم إليهم ، لا شك أنها دعوة للفوضى ، ودعوة لغبن الناس ، وظلمهم ، وسلب كل حقوقهم ، وكأنى بالحسن يشد على يد الحاكم ، حتى لا يسلط على رعيته الجهلاء فيهم ، وليدقق فى اختيار الولاة الفقهاء العلماء الذين يعرفون الحلال والحرام ، والذين إن تقلدوا مناصب القيادة ، ساد العدل فى الأمة كلها ، وقد دأب الحكام فى عصورنا على وضع الرجل غير المناسب فى المكان المناسب ، حتى يستبد لهم زمام الأمور ، ويضمنون ولاء أصحاب النفوس المريضة فى كل زمان ومكان ، ويتتابع النهى فى قوله : ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، والنهى هنا أفاد النصح والإرشاد ، وعطفت جملة النهى هنا على ما قبلها ، لاتحادهما فى الإنشائية ، ويسمى هذا الوصل بالتوسط بين الكمالين ، وزاد من حسنه اتفاق الفعلين فى الجملتين إذ كلاهما مضارع ، وهما هنا يستحضران الصورة أمام الأمير ، ولاشك أنها صورة مفزعة لتحكم الجاهلين ، وتسلط الظالمين ، ولكى يزيد الحسن من إيقاع النهى صاغه عن طريق السجع ، وقد تطلبه المقام هنا ، واقتضاه ، لأن الحسن يريد بحق دفع الخليفة عن منازع الزالقين ، والمنحرفين عن جادة الطريق المستقيم ، فحشد له الظالمين ، والجاهلين ، والمستكبرين ، فى بوتقة واحدة عن طريق السجع ، لكى لا يتخذ من هؤلاء أحدا ، ويسلطه على رقاب رعيته ، يضاف إلى ذلك أن السجع طوع لبيان أحوال الناس المتباينة ، فمنهم

الجهلاء ، ومنهم الظالمون ، ومنهم المستكبرون ، ومنهم المستضعفون ، والسجع هنا أدى وظيفة أعلا من وظيفة التناغم الصوتى ، والوقع الموسيقى ، فلم يعد الأمر تحلية ، ومسخاً ، بل تفنن وإبداع ، وبيان لأهمية البديع الذى أتى مكملاً للمعنى ، وتطلبه السياق ، ووافق الطبع .

وجملة : (ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين) ، معطوفة على ما قبلها ، ووصلت بها لاتحادهما فى الإنشائية ، ومن دقة الألفاظ ، وتناسقها مع المعانى ، أن اختار الحسن الفعل الذى يناسب كل فئة من الفئات الثلاث ، فمع الجاهلين كان الفعل (تحكم) ، لأن الذى لا يحكم بين الناس بالعدل ، وشرع الله ، فلا شك أنه جاهل ، واختار مع الظالمين الفعل (تسلك سبيل)، لأن الظلمات متعددة ، ومسالكها متشعبة ، وسبلها متنوعة ، فلذا ناسب هذه المعانى هذا الفعل ، ومع المستكبرين كان الفعل (تسلط) ، والمتكبر دائماً متعال على الناس ، رافعاً منكبيه ورأسه غروراً ، فناسب كل هذا التسلط على رقاب المستضعفين ، وهذا التوافق بين الألفاظ ، والمعانى يؤدى فى النهاية إلى التناسب ، وإن كان البعض يقصر التناسب على الألفاظ يقول التنوخى عن التناسب بين الألفاظ والمعانى : " وأكثر ما يحتاج إليه فى الألفاظ ، لأن المعانى التى تطلب لا يلزم فيها ترتيب ، ولا مناسبة ، فإن المتكلم قد يفتقر إلى ذكر الأشياء المتناقضة ، والمتضادة ، والمتنافرة ، وحيث لا يفتقر إلى شيء من ذلك فهو التناسب "[١] ، ويلاحظ أن التنوخى فى عبارته يحاول الفصل بين اللفظ والمعنى ، أو بمعنى آخر بين الشكل والمضمون ، لأن التناسب أو التناقض إذا حدث فى أحدهما ، فهو بلا شك يتحقق فى الآخر ، بل إن وجود التناقض فى التركيب إنما يحقق فى النهاية نوعاً من التناسب أيضاً ، فالطباق والمقابلة تتمثل فيهما عناصر الإيقاع المعنوى ، ولذا جعلهما قدامة من نعوت المعانى "[٢]، وقد رأينا أن التناسب فى الألفاظ أدى إلى التناسب فى المعانى .

ثم أتت جملة : (فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة)، تعليلاً لسلك هذه

---

(١) الأقصى القريب للتنوخى ص ٩٢ .

(٢) ينظر : نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ١٤١ ، والبلاغة والأسلوبية د / محمد عبد المطلب ص ٢٩١ .

السبل ، وهى مستأنفة استئنافاً بيانياً ، وتكرار التعليل فى النص يأتى فى مقام الاقتناع بالحكم ، فإن ذكر الحكم للشيء أو عليه معللاً ، أدعى للنفس إلى قبول الكلام والرضا به ، كما أن الجملة تصلح أن تكون اعتراضاً بين أسلوب النهى ، وجملة : (فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك) ، ولا يخفى فائدة التعريض البلاغية ، وما يحمله من دلالات نفسية ، ودفقات شعورية ، وقوة تمكن فى الفصاحة ، وهو جارى مجرى التأكيد كما أشار إلى ذلك ابن جنى إذ قال :" اعلم أن هذا القبيل من هذا العلم كثير قد جاء فى القرآن ، وفصيح الشعر ، ومنثور الكلام ، وهو جار عند العرب مجرى التأكيد فلذلك لا يشنع عليهم ، ولا يستنكر عندهم أن يعترض بين الفعل وفاعله ، والمبتدأ وخبره ، وغير ذلك .... "[(١)] ، ويضيف فيقول : والاعتراض فى شعر العرب ومنثورها كثير ، وحسن ودال على فصاحة المتكلم ، وقوة نفسه ، وامتداد نفسه "[(٢)] ، فوق هذا فإن الاعتراض هنا فيه اقتباس من القرآن الكريم ، وذلك فى قوله تعالى : (... لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ) [(٣)] ، وقوله تعالى : (لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)[(٤)] ، ثم إن قوله :فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ، هو نتيجة فعلية وحتمية ، لمن سلك سبيل الجاهلين ، والظالمين ، والمستكبرين ، وقد اعتمد الحسن هنا على تكرار الألفاظ ، والحروف ، وهو ما يشى بثقل هذه الذنوب والآثام ، " ثم إن القيم الصوتية لجرس الحروف أو الكلمات عند التكرار ، لا تفارق القيمة الفكرية والشعورية المعبر عنها ، ومثير هذا التطريب لتكرير الحرف ، أو الكلمة غالباً – هو حب امتلاك الكلام بإيقاعه قلب السامع، وهذا المثير قد يتحقق له

---

(١) ينظر : الخصائص لابن جنى ١/ ٣٣٥ تحقيق / محمد على النجار – ط دار الهدى للطباعة – بيروت – لبنان .

(٢) المرجع السابق ١/ ٣٤١ .

(٣) التوبة من الآية ٨ .

(٤) التوبة الآية ١٠ .

المرتجى بطريق مباشر هو طريق الصنعة ، أو غير مباشر فى أسمى التجارب الفنية عند كمال النضج المحجوب خلف بؤرة الشعور من رأس المبدع ...."[١] ، ولا شك أن الحسن أوقع التأثير فى قلب السامع بكلا الأمرين الصنعة، واكتمال النضج فى رأس المبدع ، ولا ننسى الكاف ،و ما أعطى من دلالة على ثقل الأوزار ، والأثقال التى يتحملها من يحيد عن الطريق ، ويسمع كلام الحاشية ، التى تزين للحاكم فسقه ، ولذا ترتب على النهى السابق ، النهى فى الفقرة التالية :

على الإمام ألا يغتر بالحاشية التى تزيف الحقائق، وتجمل الباطل، وتجعل الحق من شذوذ الزمن ، وغرائب العجائب .

يقول الحسن – رضى الله عنه – : ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك . ولا تنظرن إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد (عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً) [٢].

ويعود الحسن إلى النهى مرة أخرى ، والنهى هنا على سبيل التوجيه والتحذير ،من تغرير الحاشية التى تزيف الحقائق ، وتنعم فى نعيم الخليفة ، وجملة النهى هنا معطوفة على ما قبلها لاتحادهما فى الإنشائية ، وسبق بيان هذا الوصل الذى يسمى عند البلاغيين بالتوسط بين الكمالين، واعتمد فى أسلوب النهى على الطباق ، ليبرز لنا التناقض الرهيب بين حياة الأمير ، وحياة الحاشية ، فالحاشية تنعم فى ملك الأمير ، وتفسد ، وهو يجنى ثمار هذا التنعم ، ألا وهو البؤس ، ووقع الطباق بين مختلفين (يتنعمون) ، و(بؤسك) فالأول فعل ، والثانى اسم وهو طباق معنوى ، واختيار الفعل فى جانب الحاشية يصور كثرة إفسادها ، واختيار الاسم يبين ثبات ودوام الذنب على الأمير ، لأنه لم يتحر الدقة فى اختيار الحاشية ، كما أنها تتلذذ بأكل الطيبات فى دنياها ، وهى فى الوقت نفسه تذهب بطيبات

---

(١) ينظر : التكرير بين المثير والتأثير ص ٨٤ .

(٢) طه ١١١ .

وحسنات الأمير فى الآخرة ، وقد أبرز هذا التناقض الطباق بين (دنياهم) و(آخرتك) ، ويتناغم مع الطباق، الجناس فى لفظ (الطيبات) و(طيباتك) فالأول يقصد به ما لذا من الأكل ، والشراب ، أما الثانى فيقصد به الحسنات ، ولا يخفى دور الجناس فى زيادة الإيقاع داخل النص ، وزيادة جرس الكلمات ، فوق هذا أنه يأتى جميلاً عندما يناصر المعنى كما هنا، فقد عمد إليه الحسن ليبين الفوارق بين حياة الحاشية ، وحياة الأمير ، ففي جانبهم تنعم حسي زائل ، وفى جانبه حسرة وندم ، وفقد حسنات جراء غفلته عما تفعله الحاشية ، فالجناس هنا ناصر المعنى ،وهذا من أجمل مواقعه فى الكلام ، وفى ذلك يقول شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر : وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا ، ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلا، ولا تجد عنه حولا، ومن هنا كان أحلي تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلي اجتلابه، وتأهب لطلبه.[١] ، وعن جمال موقعه فى الكلام يقول العلوى : " هو عظيم الموقع فى البلاغة ، جليل القدر فى الفصاحة ، ولولا ذلك لما أنزل الله كتابه المجيد على هذا الأسلوب ، واختاره له كغيره من سائر أساليب الفصاحة "[٢] .

ويتواصل الحسن مع أسلوب النهى ، والمقصود به النصح والإرشاد فى رسالته ، فيقول :

و لا تنظرن إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد (عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً)[٣].

وجملة النهى معطوفة على ما قبلها ، للتوسط بين الكمالين ، والنهى هنا فارق بين حالين ، حال القوة ، وحال الضعف ، والعجز ، فإذا كنت اليوم فى سعة ،

---

(١) أسرار البلاغة ص ١١ .

(٢) الطراز للعلوى ٢ / ٥٦٢ .

(٣) طه ١١١ .

وتملك أمر نفسك ، فغداً لن تملك هذه القوة ، عندما تكون فى قبضة الموت ، وما بين اليوم ، والغد ، من البعد والتباين الكثير ، وكأن الطباق بينهما يصور لنا هاتين الحالتين المتناقضتين ، فوق ما فيه من بلاغة الإيجاز ، فشتان ما بين قدرة اليوم ، وقدرة الغد ،فأنت فى الغد أسير مكبل فى حبائل الموت ، وإثبات الحبائل للموت استعارة تخييلية ، وهى قرينة للمكنية ، والاستعارة هنا تصور مدى سيطرة الموت على نفس صاحبها ، وأنه لا انفكاك من سطوته ، وبناء الكلام على المبتدأ ، والخبر فى قوله : وأنت مأسور ، يوحى بفقد الحيلة والعجز ، وفى جمع كلمة (حبائل) على صيغة منتهى الجموع ، إشعار بالإحاطة ، والهيمنة ، وأن الموت يغتال النفوس اغتيالاً، لا يملك الإنسان عنه حولاً ، وتعريف (الموت) بأل لإفادة العهد ، أى الموت المعهود بين الخلق ، واسم المفعول (موقوف) يشعر بعظم الخضوع ، والخشوع لله فى هذا المحفل العظيم ، وكأنك تتخيل الإنسان منكسراً ، يرجف قلبه من شدة الخوف ، وقوله: بين يدى الله ، تعبير يشى بأن قدرة الله محيطة بك ، لا مهرب منها ، ولا ملجأ من الله يومئذ إلا إليه ، وذكر مجمع الملائكة ، والنبيين ، والمرسلين ، دون غيرهم فيه بيان بأهمية ، ومكانة الإمام ، ويؤكد كلامه بالاقتباس من القرآن الكريم ، وذلك فى قوله تعالى : (عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً)[1]. ، وفى هذا المشهد " يخيم الجلال على الموقف كله ، وتغمر الساحة التي لا يحدها البصر رهبة وصمت وخشوع . فالكلام همس ، والسؤال تخافت ، والخشوع ضاف ، والوجوه عانية ، وجلال الحي القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين ، ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله، والعلم كله لله، وهم لا يحيطون به علماً ، والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة ، والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلماً في الحساب ولا هضماً لما عملوا من صالحات ."[٢] ، ومعنى (عنت) أى : ذلت وخضعت له خضوع العناة ، وهم الأسارى في يد الملك القهار ، وظاهرها يقتضي العموم ، أى كل الوجوه ، ويجوز أن يراد بها وجوه

---

(١) طه ١١١ .

(٢) فى ظلال القرآن ٥ / ١٣٧ .

المجرمين، فتكون اللام بدل الإضافة ويؤيده { وقد خاب من حمل ظلما } ، وهو يحتمل الحال، والاستئناف لبيان ما لأجله عنت وجوههم [١] .

وقد يكون العانى بمعنى الأسير ، ولما كان الأسير ترهقه ذلة في وجهه أسند العناء إلى الوجوه على سبيل المجاز العقلي ، وجملة (وقد خَابَ من حَمَلَ ظُلْماً) ؛ إما معترضة في آخر الكلام تفيد التعليل إن جُعل التعريف في الوجوه عوضاً عن المضاف إليه ، أي وجوه المجرمين . والمعنى : إذ قد خاب كلّ من حمل ظلماً ، وإما احتراس لبيان اختلاف عاقبة عناء الوجوه ، فمن حمل ظلماً فقد خاب يومئذ واستمر عناؤه ، ومن عمل صالحاً عاد عليه ذلك الخوف بالأمن والفرح . والظلم : ظلم النفس [٢]. وكلام الحسن – رضى الله عنه – يفهم منه حمل الآية على العموم ، أى أن الخضوع لكل الوجوه ، والدليل على ذلك قوله : فى مجمع من الملائكة ، والنبيين ، والمرسلين ، فكل هؤلاء سيشهدون على الناس فى هذا الموقف العظيم ، وكأنى بالحسن يريد أن ينجو بصاحبه من هول ذلك الموقف ، وذلك باحتياطه له بعمل الصالحات ، والبعد عن الآثام ، والشرور ، وهذا ما وضح من خلال نهاية هذه الرسالة ، والتى ذكر فيها المغزى منها ، وهو الشفقة والنصح لأمير المؤمنين .

العظة وإن كانت مريرة ، إلا أنها جاءت من طبيب يداوى حبيبه :

يقول الحسن – رضى الله عنه – : إني يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهي من قبلي، فلم آلك شفقة ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة،والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

بدأ الحسن فقرته الأخيرة ، بالتأكيد فى قوله : (إني يا أمير المؤمنين) ، كما بدأ به فى أول فقرة من رسالته ، وبهذا يلتقى البدء مع الختم ، وهذا من براعة ، وبلاغة ، وفصاحة الحسن – رضى الله عنه – أن يجد هذا التناسب بين البداية ،

---

(١) ينظر : تفسير البيضاوى ١ / ٧١ طبعة دار إحياء التراث – بيروت – لبنان .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٦/ ٣٠٨ الطبعة التونسية .

والنهاية ، وهذا يدل على أن المعانى كانت حاضرة فى عقله ونفسه ، وعنده إحساس قوى بها ، والتأكيد هنا تأكيد للمتكلم ، فقد انفعلت نفسه بهذه المعانى ، فهو حريص على بيانها للناس ، ولذا أراد تقريرها فى النفوس كما أحس بها ، وفى ذلك يقول الدكتور محمد أبو موسى : هناك ضروب من التوكيد لا ينظر فيها لحال المخاطب ، وإنما ينظر فيها ا لمتكلم إلى حال نفسه ، ومدى انفعاله بهذه الحقائق ، وحرصه على إذاعتها ، وتقريرها فى النفوس ،كما أحسها مقررة أكيدة فى نفسه، وهذا اللون كثير جداً ، وله مذاقات حسنة "[١] ، ومازال الحسن يعلى من مكانة الأمير ، فيناديه باللقب (أمير المؤمنين) قائلاً : وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهي من قبلي فلم آلك شفقة ونصحاً.

وهو تعبير يبين مدى تواضع الحسن ، فبالرغم من بلاغته التى شهد له بها الدانى ، والقاصى ، إلا أنه يعترف بأنه لم يبلغ مبلغ أصحاب العقول فى النصح ، ويشفع له فى هذا القصور الذى يراه ، أنه لم يدخر نحو الأمير شفقة أو نصحاً ،إلا وأسداه إليه حرصاً منه عليه ، والتعبير بـــ (إن) تؤكد هذا الكلام ، لأنها تستخدم فى الخبر المشكوك فى وقوعه ، ولهذا اختارها الحسن ، إلا أن بناء العبارة على أسلوب الشرط ، يؤكد صدق الحسن فى عاطفته ، نحو أمير المؤمنين ، وأنه ما فعل ذلك إلا حباً فى الخليفة عمر بن عبد العزيز- رضى الله عنه - ولذا جاء تعبيره الذى يحمل كل معانى الحب: (فلم آلك شفقة ونصحاً)، وفى تنكير شفقة ، ونصحاً ، دلالة على العموم ، أى أنه لم يترك أمراً فيه خير ، إلا واجتهد فى تحصيله حباً فيه ، ونصحاً له ، ثم يختم الحسن رسالته بالتشبيه ، والذى اعتمد عليه كثيراً فى رسالته ، لأنه من أقدر الفنون تعبيراً عن العواطف ، والمشاعر ، ورصد حركات وواقع المجتمعات ، فشبه كتابه الذى أرسله للأمير ، بالمداوى الذى يداوى حبيبه ، وتحت كلمة حبيبه جملة من المشاعر المفعمة حناناً ، وصدقاً ، وحرصاً على ما فيه نفع الحبيب ، فى الدنيا والآخرة ، وكعادته يستطرد فى بيان صفات المشبه به (المداوى) ليؤكد على حرصه على إسداء النصح للأمير ، ولعل فى اختيار كلمة

---

(١) خصائص التراكيب ٥٥ .

(حبيبه) كما قلت سابقاً ما يؤكد هذا ، و(الأدوية الكريهة) توحى بجسامة المسئولية ، وأن على الحاكم أن يتحملها بمصاعبها ، كما يتحمل العليل الدواء المر أملاً فى الشفاء ، والعافية ، وختم رسالته كعادته بتحية الإسلام قائلاً (والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته) وهو نهج عند ه فى أغلب رسائله .

وآمل من الله أن أكون قد وفقت فى فهم مراد الحسن – رضى الله عنه –، وإيضاح ما اشتمل عليه كلامه من لطائف ، ونكات بلاغية ، لعل يجد فيها القارئ ما ينفعه .

{ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [1]

---

(١) هود من الآية ٨٨ .

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على خير البرية محمد بن عبد الله .

وبعد

فها أنا أصل إلى نهاية هذه الدراسة البلاغية لرسالة الحسن البصرى فى صفة الإمام العادل ، والتى وضح من خلالها البلاغية العالية عند صاحبها ، فوق ما اشتملت عليه من نكات ولطائف بلاغية وقفنا عليها أثناء الدراسة ، يضاف إلى ذلك الطابع الذى طبع كتابات الحسن ، والأسلوب الذى تميز به ، وقد خلصت هذه الدراسة إلى الآتى :

- أن النثر لا يقل روعة وجمالاً عن الشعر فى أداء المعنى ، وإيصال المقصود إلى ذهن المتلقى ، كما لا يخفى فيه حسن توظيف المعانى البلاغية فى الدلالة على المعنى المراد .

- اعتمد الحسن على أسلوب التكرار سواء تكرار الحروف ، أو الكلمات والجمل، والتكرار أسلوب تعبيرى يصور لنا انفعال النفس بما تريد إيصاله للمتلقى ، كما أنه يؤكد الكلام ويقرره فى النفس ، وقد عرضنا لصور التكرار عنده كتكرار لفظ (كل) فى عبارات متتالية ، وكتكرار لفظ الجلالة (الله) لما فى ذلك من استحضار جلال وعظمة المولى فى المواقف التى يجب للخليفة أن يقدر فيها عظم المسئولية الملاقاة عليه فى مراعاة شئون الرعية ، كذلك تكراره لجملة (والإمام العادل يا أمير المؤمنين) ، والتى توحى بمكانة الخليفة العظيمة فى نفس الحسن ، وغير ذلك الكثير مما ذكرناه أثناء التحليل البلاغى .

- عمد الحسن إلى الاستطراد فى التشبيه عن طريق كثرة التفصيل فى المشبه به ، وبيان جزئياته ، وهو فى ذلك يبغى نفاذ كل وسائل النصح للخليفة ، والحرص على قيامه بواجباته على أكمل وجه ، والحق أن مثل هذه التشبيهات هى دليل على عبقرية صاحبها ، لأنها تتطلب تركيزاً شديداً فى ربط جزئيات صورته بعضها ببعض ، وبيان أثر كل جزئية على نفسه ، وبذلك يتحقق لصورته التشبيهية عناصر التأثير والإثارة .

- وظف الطباق والسجع توظيفاً فى خدمة المعنى ، والدلالة على المقصود

، ومن ثم لم يكن فى بديعه متكلفاً ، وإنما تطلبه المقام واستدعاه الحال .

– اعتمد على أسلوب الترهيب والترغيب ، والتذكير بالموت ، مع الميل فى كل إلى نبرة الحزن ، ولعل حياته ونشأته هى التى صبغت أسلوبه بهذه الخصائص ، وقد عرف معاصروه هذا الأمر عنه إذ يقول أحدهم : فما رأينا أحداً من الناس كان أطول حزناً منه _ أى من الحسن – ما كنا نراه إلا أنه حديث عهد بمصيبة [١] وكان الحسن – رحمه الله – قلبه محزوناً [٢] .

– يضاف إلى كل ما سبق أن الحسن البصرى له أسلوبه الخاص الذى تميز به بين معاصريه ، وآمل من الله أن أكون قد وفقت فى الكشف عن جانب من بلاغته ، وأن يكون فى عملى ما يثرى الدرس البلاغى ، ويضيف للمكتبة البلاغية شيئاً جديداً .

(رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)[الممتحنة: ٤] .

الباحث

---

(١) ينظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٢ / ١٣٤ ط ٣ – ١٩٨٠ دار الكتاب العربى – بيروت .

(٢) المصدر السابق ٢ / ١٣٢ .

فهرس المراجع

١ - الأدب العربى وتاريخه فى عصرى صدر الإسلام والدولة الأموية ، محمود مصطفى طبعة مصطفى البابى الحلبى ١٩٣٧م .

٢ - أساليب القصر فى القرآن الكريم د / صباح دراز - مطبعة الأمانة الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦ م .

٣ - أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجانى تحقيق محمود شاكر طبعة المدنى القاهرة ١٤١٢هـ .

٤ - الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ضمن شروح التلخيص مطبعة السرور .

٥ - البلاغة والأسلوبية د / محمد عبدا لمطلب - طبعة دار المعارف .

٦ - البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبدا لسلام هارون - طبعة الخانجى - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٦٨م .

٧ - تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي تحقيق محمد سعيد العريان طبعة دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٤م .

٨ - تاريخ الجدل للشيخ محمد أبو زهرة طبعة دار الفكر العربى ١٩٨٠م .

٩ - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد أحمد صقر - طبعة دار التراث ١٩٧٣ م .

١٠ - التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور الطبعة التونسية .

١١ - التصوير البيانى د محمد أبو موسى طبعة مكتبة وهبة .

١٢ - تفسير البيضاوى طبعة دار إحياء التراث - بيروت - لبنان .

١٣ - التكرير بين المثير والتأثير د عز الدين إسماعيل طبعة عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦م .

١٤ - ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الكريم - طبعة دار المعارف .

١٥ -جمهرة خطب العرب - أحمد زكى صفوت - دار الكتب العلمية .

١٦ - الحسن البصرى لإحسان عباس - الطبعة الأولى - دار الفكر ١٩٥٢ م .

١٧ - حلية الأولياء لأبى نعيم ١٩٨٠ - دار الكتاب العربى بيروت .

١٨ - الخصائص لابن جنى تحقيق / محمد على النجار - ط دار الهدى للطباعة - بيروت - لبنان .
١٩ - خصائص التراكيب د / محمد أبو موسى - طبعة مكتبة وهبة - الطبعة الرابعة١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م
٢٠ - الخطابة العربية فى عصرها الذهبي د / إحسان عباس طبعة دار المعارف ١٩٦٣م .
٢١ - دراسات فى التصوف الإسلامي ظلاله فى الأدب العربى د / محمد عبدا لمنعم خفاجى طبعة دار الطباعة المحمدية بالأزهر .
٢٢ - دلائل الإعجاز للشيخ عبدا لقاهر الجرجانى تحقيق / محمود شاكر- مطبعة المدنى - القاهرة .
٢٣ - دلالات التراكيب د / محمد أبو موسى طبعة مكتبة وهبة .
٢٤ - سنن النسائى - طبعة مكتبة المطبوعات الإسلامية .
٢٥ - سير أعلام النبلاء للذهبي تحقيق مأمون الصاغرجى ،مطبعة الرسالة بيروت ١٩٨١ م .
٢٦ - الصاحبى لابن فارس - تحقيق السيد صقر - طبعة عيسى الحلبى ١٩٧٧م .
٢٧ - صحيح البخارى طبعة دار ابن كثير - اليمامة بيروت (دت) .
٢٨ - صحيح مسلم - طبعة دار إحياء التراث العربى .
٢٩ - الطراز للعلوى طبعة دار الكتب الخديوية مصر ١٩١٤ م .
٣٠ - عروس الأفراح لبهاء الدين السبكى - ضمن شروح التلخيص طبعة دار السرور
٣١ - العقد الفريد لابن عبد ربه - دار إحياء التراث العربى .
٣٢ - علم المعانى - د / عبدا لحافظ البقرى .
٣٣ - العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد دار الجيل الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ /١٩٨١م .
٣٤ - فتوح البلدان للبلاذى تحقيق د / صلاح الدين المنجد ، طبعة مكتبة النهضة المصرية .

٣٥ - فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب طبعة دار الشروق .
٣٦ - كتاب الصناعتين تحقيق د مفيد قمحية دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٩٨١م .
٣٧ - المثل السائر لابن الأثير- تحقيق أحمد الحوفى ، وبدوى طبانه - طبعة نهضة مصر - طبعة أولى ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠م .
٣٨ - مختارات من أدب العرب منذ البعثة حتى نهاية العصر الأموي د / صلاح رزق ، والسعيد شوارب .
٣٩ - مختصر العلامة سعد الدين التفتازانى - طبعة دار الكتب العلمية .
٤٠ - مدخل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى د / محمد أبو موسى طبعة مكتبة وهبة - الطبعة الأولى .
٤١ - المعارف لابن قتيبة تحقيق د / ثروت عكاشة طبعة دار المعارف بمصر .
٤٢ - معجم الأعلام للزركلى .
٤٣ - من أسرار التعبير القرآنى دراسة تحليلية لسورة الأحزاب - مكتبة وهبة - الطبعة الثانية ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .
٤٤ - مواهب الفتاح لليعقوبى ضمن شروح التلخيص - طبعة دار السرور .
٤٥- نقد الشعر لقدامة بن جعفر ،تحقيق د محمد عبدا لمنعم خفاجى .
٤٦- وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق د إحسان عباس طبعة بيروت .